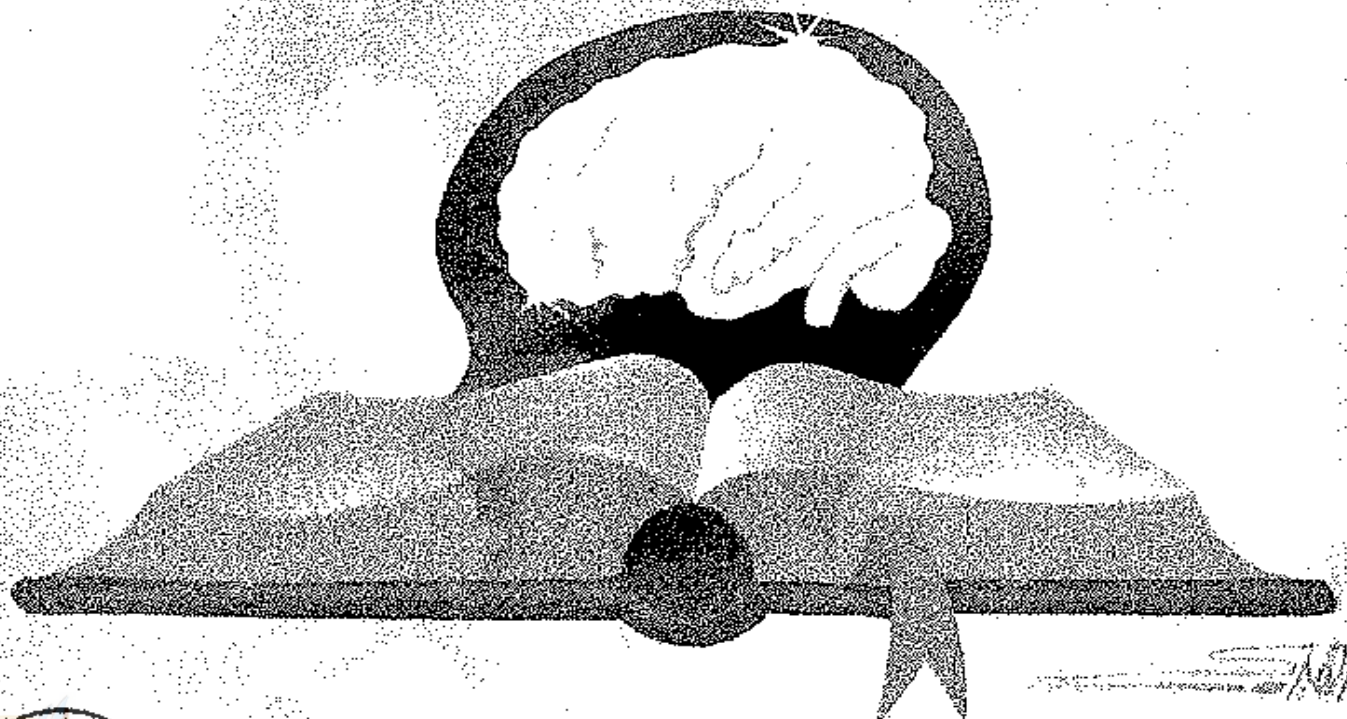


ثوابت ضرورية فى فقه الصحوة الإسلامية

د. عبد الحليم عويس



ثوابت ضرورية في فقه الصحوة الإسلامية

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة



الإدارة: ٧ ش السراي. أول المئيل ت. فاكس: ٩٨٧٩٢٤
الفرع: حدائق حلوان. بجوار عمارات المهنيين ت ٣٧٤٠٠٧١

د. عبدالحليم عويس

ثوابت ضرورية فى فقه الصحوة الإسلامية





مقدمة

يتحدث المنافقون كثيرا في عصرنا عن الثابت و المتحول ...
و هم يكتبون الدراسات و المقالات و الرسائل الجامعية بهدف
مسبق ، هو أن يثبتوا أنه لا ثابت في هذه الحياة ، فكل شيء
متغير ..

- لا عقيدة ثابتة

- لا شريعة ثابتة

- لا أخلاق ثابتة

- لا وحي ... و لا روح .. و لا ضمير .. و لا لغة قرآنية
ثابتة .. إن كل المفاهيم نسبية ، و هذه البشرية أكذوبة كبرى
تخضع لتحولات جذرية من شمبانزى الى قرودة الى إنسان ..
و بالعكس !!

فما عليك إلا أن تركض مسرعا بأقصى سرعة في الطريق،
متجاوزا شارات المرور الحمراء ، و معالم الطريق البيضاء
و السوداء ، أو التي نسميها شرعا الحلال و الحرام ..

فامض في طريقك مأكرا متسولا بائعا للكلمة و لضميرك
و وطنك و شرفك، و ارتع من خمور الحانات، و بائعات الهوى !!
- فما دمت متحولا - و لاثوابت - فتحول قبل أن يحول حولك،
و تذهب الى رمسك حيث العدم و التحول .. فلا حساب ثمة و لا

عقاب، فقد كنا فى دنيا فانية متحولة.. نعيش جملة غير مفيدة ،
يكرم فيها الجبابرة الطغاة من أمثال لينين و ستالين
وعبد الناصر، و يعذب الأشراف المخلصون و يلاحقون .. و إذا
حافظوا على الصلوات فى المساجد فى بعض البلاد العربية قيل
عنهم : إنهم متطرفون.. !!

- ألا ترى أن القول بالتحول و النسبى أجدى و أنفع من القول
بالمطلق و الثابت.. وما يتبعهما من ثواب و عقاب ؟ !!
ذاك منطق المنافقين ... الذين زين لهم الشيطان أعمالهم و هم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا... بل يحسبون أنفسهم عقلاء
المسلمين .

إنهم الذين حكى الله أقوالهم التى سيقولونها يوم القيامة للمؤمنين
مكرهين، و هم يظنون أنهم ما داموا قد خدعوا الناس فى الدنيا
بإسلام قولى شكلى لا حقيقة فيه سيخدعون الله يوم القيامة ...
كلا.. فليس فى هذا اليوم تمويه و لا خداع... أجل : إنهم الذين
يقول الله عنهم : "يوم يقول المنافقون و المنافقات للذين آمنوا
انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا
فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة و ظاهره من قبله
العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى، و لكنكم فتنتم أنفسكم
و تربصتم و ارتبتم و غرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله و غرکم

بالله الغرور. فالיום لا يؤخذ منكم فدية و لا من الذين كفروا
 مأواكم النار هي مولاكم و بنس المصير" (الحديد: ١٣-١٥).
 إن كل شيكاتكم التي أخذتموها من أرصدة الماركسية و العلمانية
 و التنصير لا تصلح فدية في هذا اليوم.. لأن عالم الرشاوى قد
 انتهى.. و الملك كله اليوم لله، فذوقوا جزاء وأدكم لعقولكم ،
 واتباعكم لشهواتكم، و افترائكم على خالق السموات و الأرض،
 بأنه خلق هذه الدنيا عبثا ... و كأنكم لم تقرأوا ما ورد في كتابه
 الكريم:

"ربنا ما خلقت هذا باطلا... سبحانه" (آل عمران : ١٩١) .
 "لو أردنا أن نتخذ لهموا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل
 نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق و لكم الويل مما
 تصفون" (الأنبياء : ١٧-١٨)

لقد رميتم الذين دعوكم الى (الثوابت) بقذائف باطلة و اتخذتموهم
 سخريا فرميتموهم بالرجعية و التخلف و الجمود و غيبوبة
 العقل... و حتى التائبون و الثابتات من الممثلين و الممثلات
 افتريتم عليهم و دعوتموهم الى الثبات على الباطل و العودة الى
 جهنم .. فاثبتوا أنتم هنا في جهنم .. فلا تحول هنا و لا تبدل ..
 فأنتم - يا أعداء الوحي و ثوابته و قواعد الإيمان - "قسي جهنم
 خالدون . تلفح وجوههم النار و هم فيها كالحون" (المؤمنون :
 ١٠٣)

و هنا فى هذه اللحظة يسقط الجدل و الحوار الذى ألفوه و هم يضمرون الثبات على الباطل:

- "أخسئوا فيها و لا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا و ارحمنا و أنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون. إنسى جزيتهم اليوم بما صبروا. أنهم هم الفائزون" (المؤمنون : ١١١)

- "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم إلينا لا ترجعون" (المؤمنون: ١١٥)

فبئس ظنكم بالله ، و بئس كذبكم عليه.. فذوقوا جزاء فلسفتكم و علمانييتكم و ضلالكم !!

• • •

إن الحياة البشرية بلا ثوابت تحدد معالم الطريق و تلتف حولها المتحولات و المتغيرات غابة يعيش فيها وحوش... و لقد تواترت وقائع فى الصحف - بما لم يعد فى حاجة الى دليل - تؤكد أن العقل وحده لا يصلح للتشريع و لا قيادة الحياة ، فها هى الكنيسة السويدية تزوج رجلا لرجل ، و ها هم الشواذ جنسيا يحصلون على حقوق قانونية و برلمانية، و ها هو الزنا تعج به أرقى البلاد مدنية و أكثرها إنتاجا و اختراعا و رفاهية.. و مع أنهم يكتبون أروع التقارير الطبية و الاجتماعية عن أضرار الزنا

و الشذوذ والخمور، فإنهم يعتبرون ممارستها من الحقوق
و الحريات الشخصية!!

- و متى وقف العقل المسلم ضد اختراع بناء أو تقدم تكنولوجى
أو إنسانى هادف!!

- إن هذا العقل نفسه هو الذى أخذ بيد البشرية الى العلوم
و المعارف، و سطعت شمس الله - بجهوده - على الغرب فى
كل المعارف لقرون طويلة .. و علماء الإسلام الحقيقيون
يؤمنون و يفتون بأن تقدم المسلمين فى كل فروع التكنولوجيا
و الطب و الإدارة و الاقتصاد فرض كفاية تأثم الأمة كلها إن لم
يقم به البعض..!!

- فمتى وقف المسلمون إذن ضد العلم النافع لا الترف الثقافى
المبتذل الذى يسىء الى ذاتنا و قيمنا الحضارية !!

- و هل من الضرورى أن نأخذ من أوربا الشذوذ و الخمور
و الزنا مع التكنولوجيا.. ألا توجد تكنولوجيا بلا دعارة !!

- بل إن هؤلاء العلمانيين كذابون .. حتى على أوربا ، فهم لا
يركزون فى النقل عن أوربا إلا على إفرازاتها القذرة ،
و يتركون المساحة الإيجابية الطيبة فلا ينقلون عنها شيئا .. و لا
يصورونها لشبابنا.. و قد عاش لويس عوض يدعو المسلمين الى
العكوف على قاذورات أوربا الفنية، و أساطيرها اليونانية..

و يبعدها عن ترجمة العلوم و التكنولوجيا .. فكان كسلامة
موسى فى غش المسلمين حذوك النعل بالنعل!!

• • •

و نحن هنا - متخلصين من الهزيمة النفسية و الفكرية واثقين فى
ديننا - نضع الوحى فى مكانه و العقل فى مكانه ، و نقدم لشباب
الصحوة الإسلامية الواعدة مفاهيم منضبطة عن عدد من الثوابت
الضرورية التى تحتاج الى تعميق جذورها فى الأعماق، و عدم
المساومة عليها.. و لو كره المنساقون، و السلام على من اتبع
الهدى.

نظام الدين غرب / دلهى

فجر الجمعة الرابع عشر من نوفمبر ١٩٩٢ د/ عبدالحليم عويس

فى فقه الثوابت**الوحى قبل العقل****و درء التعارض بين الثابت و المتحول**

فى عصور الألق الإسلامى كانت الحدود واضحة بين المنطلقات الثابتة و التصورات الإسلامية المتجددة ... و لم يكن هذا الخلط - و هذا الصراع القائم عليه - قد انتشرا بين المسلمين ...

- كانت قضايا الإيمان تتجه الى مجراها الطبيعى كما تتجه المياه العذبة الى نهرها الصافى ...

- وكانت قضايا العقل تتجه الى بحرها أو محيطها فتلتقى مع قضايا الإيمان متعاونة معها مؤكدة لها، لكن ، مع ذلك ، كان بينها و بين قضايا الإيمان (برزخ لا يبغيان) ... !!

- فماذا حدث - بعد ذلك - حتى أصبح بعض المسلمين يعتدى على أخص خصائص الإسلام ، و هو مزجه بين الإيمان و العقل فى تناغم و انسجام .. بحيث يستحيل معه تعارض النقل و العقل ؟ ... ماذا حدث حتى يزعم بعضهم أن العقل (أولا) ... و يزعم آخرون أن العقل (ثانيا).

- و ليس فى القضية (أولا) و لا (ثانيا) ... فالعقل الرشيد ابن شرعى للوحى الصحيح.. و من أبرز مهام الوحى تكوين العقل

بعيدا عن التقليد و التعصب و الجزئية و العمى و الجمود
و استلاب الغرائز والضلال، و تحكم الهوى و الأثرة
و العنصرية و التحيز و الجهل، و غيرها من صور الضغط
و التوجيه التى تمنع العقل أن يرى الصورة كلها، و أن يضع
الأمور فى نصابها، و أن ينتهى الى الحكمة الراشدة والرأى
الدقيق المحيط السديد!!

• • •

و كان بعض المعتزلة و الفلاسفة من أوائل من خلطوا فى هذه
القضية، و كان لهم بعض العذر فى ذلك؛ إذ كانوا يواجهون
مرحلة حرجة انتشرت فيها الوثنيات و الفلسفات القائمة على
التشكيك بتأثير حركة الترجمة من اليونانية و وثنياتها الى
العربية، و هى حركة ذات تأثير ضار، إذ كان الصحيح
والمعقول أن تكون الترجمة - فى مجال التصورات العقديّة
و الإنسانية - من العربية و إسلامها العظيم الى اللغات
الأخرى.. فعقيدتنا و تصوراتنا العقديّة التوحيدية هى الأعلى
و الأولى بالانتشار، و من واجب العالم أن يجعل عقيدتنا مقياس
الصحة و السلامة، و على أصحاب الأديان و الفلسفات أن
يفلسفوا أفكارهم لتلتقى مع أفكارنا ... و ليس العكس ... (١١)
فالذى حدث فى حركة الترجمة للأفكار و التصورات أن معظم
فلاسفتنا و بعض المعتزلة - إن لم يكن أكثرهم - قد وقفوا

موقف الدفاع ... وراحوا يبررون ، و يلفقون ، و يدافعون؛ حتى يجدوا جسورا بين بعض التصورات الإسلامية و بين فلسفات أرسطو و أفلاطون و أفلوطين و غيرهم...

و كان الأزكى أن نقدم - نحن المسلمين- بكل اللغات - عقيدتنا الإسلامية و نظرتنا للكون و الإنسان، و خالق الكون و الإنسان... و بالتالى نتخذ موقف الهجوم، و تجد العقائد الأخرى نفسها مضطرة لفهمنا و اكتشاف حقائق الإسلام العقديّة و أصوله التشريعية...

- و ما وقع فيه أكثر المعتزلة و الفلاسفة فى القديم و قع فيه كثير من المصلحين الذين واجهوا الحضارة الأوربية الحديثة بموقف انهزامى تليفى، و حاولوا جاهدين إخضاع حقائق الإسلام المتصلة بالكون و الإنسان، و بعض القوانين النسي تحكمها - لمقولات العلم الأوربي و نظرياته الكثيرة المتقلب و التطور!!!

• • •

- العقل ... (أولا) ... نعم ... لكن فى شئون الدنيا..
- والوحى ... (أولا) ... نعم ... لكن فى شئون الدين ، و كل ما ورد فيه نص قطعي الثبوت و الدلالة هو من شئون الدين، حتى و لو كان متصلا بالدنيا؛ لأن من البديهي - بمكان - أن

تتصل كثير من النصوص العبادية بشئون الدنيا ، فالروابط وثيقة بين ما هو دين و ما هو دنيا في التصور الإسلامي!!
و نحن في الإسلام نؤمن بأن "التفكير فريضة إسلامية" لكننا كذلك نؤمن بأن هذا التفكير - يجب أن يتجه الى دراسة الأنفس و الآفاق : "سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"(فصلت : ٥٣) لا أن يتجه الى التخرص في أمور سمعية تتصل بذات الله و كنهه سبحانه و تعالى مما لا قبل للعقل به ، و هو منهج انحدر اليه - للأسف - مسلمون كثيرون يزعمون أنهم يخدمون العقيدة ، و هم في الحقيقة يظلمون العقيدة و يمشون على أشواك مهلكة، و يجرون الأمة الى خلاقات دامية لا سبيل الى حسمها، بل إنهم ليشغلون بمعارك و قضايا لم يفكر فيها صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم و لا تابعوه رضوان الله عليهم !!

و لو أن الصحابة - رضى الله عنهم - انشغلوا بها لتأكلوا داخلها، و لما جيشوا الجيوش و فتحو الفتوحات و نشروا دين الله في الآفاق !!

- إن ديننا واضح في تعامله مع الطاقات البشرية كلها و من بينها العقل ... و قد وجه كل طاقة للتعامل مع النوافذ التي تستطيع التفاعل معها... فنافذة (الغيب) لا يقوى العقل على التحكم فيها ؛ لأنها منطقة تسليم و إيمان ، و فيها ما لا عين

رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر و لا عقله. و لا تستطيع مناهج العقل البشرى استيعابها، و قد لا تستطيع مفردات اللغات التعبير عنها ، كما لا يستطيع الإدراك العقلي إدراك كل جوانبها. و لهذا ، فالروح و الفطرة الإيمانية و الوجدان هي الطاقات المؤهلة للتفاعل مع الغيب... و لن يكون المسلم مسلماً بالعقل وحده، بل الإيمان بالغيب أساس من أسس العقيدة : "الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون" (البقرة: ٣) ... و سواء أدرك العقل حكمة الغيب و أهمية الغيب، و دور الغيب في تحقيق العدل الإنساني، و في تحقيق "منطقية" وجودنا في هذا العالم المضطرب ظاهراً، ... سواء أدرك العقل هذا أو عجز عن إدراك حكمة بعض الغيب، فإن عدم إدراكه لحكمة الغيب لا يعنى عدم وجود الغيب... وهناك ملايين تموت في بلادنا و هي لم تزر اليابان أو أمريكا أو استراليا... لكنها تؤمن يقيناً بوجودها، و بخصائصها الجغرافية و الحضارية!!

* * *

و متى صح عن الدين شئ بخبر متواتر أو آحاد صحيح فلا يجوز إلغاؤه بالعقل...

و لا يعارض الثابت عن الله بالعقل... بل يواجه النقل بالنقل، و يجمع الصحيح الى الصحيح ، لتكتمل الصورة ، أو ليعاد

بالحديث المرتبط بموقف أو واقعة الى الحديث الذى يضع قواعد
تشريعية ذات صفات عمومية أو قواعدية...!!
و كل علماء الإسلام الواعين فى القديم و الحديث قد أوجبوا
الأخذ بخبر الأحاد الثابت من حديث رسول الله ... و ما وقفوا
عند حديث منه إلا اعتمادا على حديث آخر أو آية قرآنية ...
و ليس اعتمادا على العقل...
و قد هدفوا من ذلك الى الاستنباط القائم على النصوص كلها،
و هو منهج سديد و مطلوب، و ما هدفوا الى نقض قول ثبت عن
رسول الله صلى الله عليه و سلم أو تعطيله...
و هذا هو منهج الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي نفسه ، مع
أن بعضهم - سامحهم الله - يزعم أنه يرد أحاديث رسول الله
بالعقل... و هو ما لا يمكن أن يقع فيه داعية مثله ... فمن
المعروف لدى جميع الباحثين أنه قد وردت عن رسول الله
أحاديث شريفة ثابتة لا يستطيع الوعى العلمى فى بعض القرون
إدراك كل أبعادها... و بعض الأحاديث لم تدرك مراميها إلا فى
العصر الحديث، و بعد التقدم العلمى الهائل...!!

• • •

و هناك ملحظ آخر جدير بالذكر هنا ، و هو أن أحاديث الرسول
قد تعالج مواقف مختلفة و معقدة ، و ما يصلح لحالة ، أو فى

موقف ، أو لقوم، قد لا يصلح في حالة أخرى أو موقف آخر أو لأقوام آخرين...

- و بعض المسلمين عندما يصرون على رأى واحد يصادرون
- من حيث لا يدرون - سعة الإسلام وتسامحه و صلاحيته لكل
زمان و مكان ...

- فبعض الظروف الضاغطة قد تحيل المندوب إلى جائز، بل
إلى مكروه إن كان فعله سيؤدى إلى ضرر أكبر من النفع الذى
يعود منه.

- و على سبيل المثال فإن إعفاء اللحية (سواء كان واجبا أو
مندوبا) [مع أنه فضيلة إسلامية وشعيرة إيمانية على كل حال] قد
يصبح مكروها (أو حراما) إذا تحقق أن النظام السياسي الحاكم
فى بعض البلاد سيؤذى الذى يعفى لحيته و يهينه و يدفع به إلى
السجون و التضيق فى الرزق. و قد يكون من جراء إعفاء
اللحية تشريد الولد و المرأة و تمزيق الأسر، و دمار مستقبل
الأبناء...!!

- و نحن إذا أخذنا بهذا الفقه للأحكام ، فإن صدورنا قد تتسع
لقبول أخبار تبدو لنا و كأنها متعارضة ... و لكنها تعالج - فى
الحقيقة - مواقف مختلفة تتصل بأماكن مختلفة، أو عصور
مختلفة، أو ظروف مختلفة!!

* * *

إن السؤال الذى يجب علينا أن نجيب عليه هنا هو:
متى استشرى هذا الجدل فى حضارتنا حول مكانة الوحي بالنسبة
للعقل أو مكانة العقل بالنسبة للوحي؟

- إن البناء الإسلامى منذ قدام و هو يتكى على تشابك خيوط
الوحي و العقل معا، فإذا كان الأساس وحيا، فإن طبيعة الوحي
لم تكن من مواد مناقضة للعقل أو عسيرة الاستيعاب بالنسبة له.
وليس فى القرآن الكريم و لا فى سنة الرسول صلى الله عليه
و سلم الصحيحة ما يتناقض مع العقل الصحيح، و أما الفروع
فإنها و إن رشحت بالوحي إلا أن امتداد العقل فيها فسيح
و كبير!!

و فى ضوء هذا نقول : إن علاقة الوحي بالعقل لم تكن مطروحة
فى عصر الرسالة أصلا ؛ لأن الصحابة رضى الله عنهم -
و هم أصحاب عقول صافية نقية - لم يكتشفوا تناقضا بين حقائق
الإسلام و الفطرة و العقل و المبادئ البسيطة التى تعارف عليها
الوعى الإنسانى. و قد كان الصحابة مشغولين بتغيير أنفسهم
و تغيير العالم، و لم يكونوا مشغولين بفلسفة الأشياء و فلسفة
العالم، و إغراق أنفسهم فى مناهات جدلية شبيهة بمناهات
عصور السفسطة الجدلية!!

إننى أتذكر الآن كم هو كثير جدا عدد تلك الكتب التى كتبها الماركسيون و الاشتراكيون دفاعا عن منطقية النظرية الشيوعية و معقوليتها، بل و حتميتها العقلية و العلمية..!!

و قد انخدع بهذه الكتب مئات الملايين من البشر، و قامت على أساسها الفكرى (المعقول ..) دول و حكومات . لكن لأن (معقوليتها) لم تقم على ثوابت فطرية منسجمة مع الكل الإنسانى الذى تشكله جميع طاقات الإنسان، فسرعان ما سقطت بعد نصف قرن من التجربة القاتلة!!

- لقد ضخمت الشيوعية جانباً واحداً ، و بالتالى تضاعلت لدرجة شبه العدم جوانب أخرى أساسية و ضرورية فى الكيان الإنسانى، و لا يعقل الكيان الإنسانى بدونها..

- فالمعقولة التى قد ينبهر بها العقل قد لا تصمد للبقاء فى إطار الوعي الإنسانى الموضوعى الذى ينسجم مع كل الطاقات و يحسن التفاعل معها..

و الخطورة كامنة فى سرعة الانبهار و سرعة الحكم بعدم معقولة الشئ؛ لمجرد أن عقل فرد أو عقل جماعة - خضوعاً لبيئة أو أوضاع معينة - لم يستوعب معقولة الحقائق المطروحة!!

- إن بعض ما كان علماء فى السابق فى مجال الطب أو الجغرافيا أو الفلك قد أصبح خرافة مضحكة فى عصرنا الحديث.

- و بعض ما هو موجود فى عصرنا مثل (الفاكسميلى) و (الطائرة) و "الكمبيوتر" و "الهاتف" كان خرافة غير معقولة فى الماضى..

لكن الإسلام واجه البشرية منذ البداية بالإمكانية العقلية الكاملة للإبداع، و كان حادث الإسراء و المعراج بداية تأكيد هذا الأساس. و بالتالى ، فلم يظهر فى عصور القوة الإسلامية ذلك التعارض الوهمى بين ما هو وحى و ما هو عقل، و لم يطرح استفهام حول أسبقية الوحى أو العقل، و مع أن الوحى كان السابق بيقين منذ علم الله آدم الأسماء كلها - إلا أنه - فى الإسلام بخاصة - لم يعقل تعارض الوحى مع العقل أبداً.

• • •

لقد حسم الإسلام الخصومة المصطنعة بين الدين و العقل، و حرر الإنسان من أزمة الصدام بين الدين و العلم. و لهذا فليس الإسلام فى حاجة الى العلمانية ، لأن الأسباب التى أدت الى العلمانية فى أوربا لا مكان لها فى الإسلام، و الزعم الشائع فى تاريخ الفكر الإنسانى بأن هناك صراعاً مستمراً و تناقضاً أبدياً بين الدين و العقل أو بين الدين و العلم لا ينطبق بحال من الأحوال على الدين الإسلامى، فكلاهما - الدين و العقل - يشكلان فى الإسلام وحدة واحدة تتشابك أنسجتها تشابكاً محكماً.

- و قد كان لفكرة التوفيق و روح الاعتدال التى تنطوى عليها تعاليم الإسلام أثرها العظيم فى سريان هذه الروح. و انتشار هذه الفكرة فى الحضارة الإسلامية بصفة عامة و الثقافة الفلسفية بصفة خاصة. و لهذا رأينا الفلاسفة المسلمين يتجهون فى فلسفتهم الى تأكيد التوفيق بين الدين و الفلسفة ، و بيان توافق المصدرين - مصدر الدين و مصدر الفلسفة - فى المعرفة و الوصول الى الحقيقة. و قد اتخذ التوفيق لديهم صورا عديدة (١) هذا مع اختلافنا مع بعض مناهج ما يسمى بالفلسفة الإسلامية) .

- فالكندي (ت ٢٥٢هـ - ٨٦٥م)، الذى عرف الفلسفة بأنها علم الأشياء بحقائقها، يرى أنها لا يمكن أن تتناقض إطلاقا مع الدين، فغايتتهما واحدة.

- و يرى الفارابي (ت ٣٣٩هـ - ٩٥٠م) أن موضوعات الدين و موضوعات الفلسفة واحدة ، فكلاهما يعطى المبادئ القصوى للموجودات. فإنهما يعطيان علم المبدأ الأول و السبب الأول للموجودات، و يعطيان الغاية القصوى التى لأجلها كون الإنسان و هى (السعادة القصوى). و الفلسفة الصحيحة لا تتناقض مع الدين الصحيح، فإن بدا هناك بعض النفور أو التناقض بين الطرفين فما ذلك إلا لأن النظام الفلسفي الذى تتناقض مع الدين

يعتبر نظاما واهيا لم تكتمل فيه البراهين المؤدية إلى اليقين.
فالحقيقة لدى الفارابي واحدة و لكن الطريق إليها متعدد. (٢)
- وقد ركز ابن مسكويه (ت ٤٢١هـ - ١٠٣٠م) على الغاية.
و لهذا اهتم بالتوفيق بين غاية كل من الأخلاق - و هي فرع من
فروع الفلسفة - و الدين من حيث أن كلا منهما يهدف إلى
سعادة الإنسان. و كذلك اهتم ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)
بالمعنى العملي لكل من الفلسفة و الدين و ذهب إلى أن غرضهما
هو إصلاح النفس و أنه لا خلاف بين الفلسفة و الشريعة في
ذلك.

- و يرى ابن سينا (ت ٤٢٨هـ - ١٠٣٦م) أنه لا يوجد في
أقسام الحكمة (أى الفلسفة) ما يخالف الدين أو يتعارض معه .
و يرجع ضلال أدعياء الفلسفة عن منهاج الشرع إلى قصور في
تفكيرهم و عجز في أفهامهم. و فى ذلك يقول : "لقد ظهر أنه
ليس شئ منها (أى الفلسفة) ما يشتمل على ما يخالف الشرع،
فإن الذين يدعونها ثم يزيغون عن منهاج الشرع إنما يضلون من
تلقاء أنفسهم و من عجزهم و تقصيرهم لا أن الصناعة نفسها
توجيه، فإنها بريئة منهم".

- أما الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ - ١١١١م) فقد حرص على
ضرورة الحفاظ على وحدة العقل و الدين و إن كان لم يذكر
الفلسفة فى هذا الصدد باللفظ. فالإنسان - كما يقول - لا يستطيع

أن يستغنى عن الدين أو العقل. فالعقل كالأساس و الدين كالبناء و لا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر، فلا نفع في أساس بدون بناء، و لا ثبات لبناء بدون أساس. و لذلك يرى الغزالي أنهما متحدان اتحادا لا يمكن فصله، و من يجرو على تعطيل أى منهما فهو - فى رأى الغزالي - إما جاهل أو مغرور. (٣)

- و قد بين ابن طفيل (ت ٥٨١هـ - ١١٨٥م) فى قصته الفلسفية المشهورة (حي بن يقظان) كيف يستطيع الإنسان عن طريق عقله و دون معونة من الخارج أن يتوصل إلى معرفة العالم العلوى و يهتدى إلى معرفة الله و خلود النفس، و أن ما يتوصل إليه من معارف لا يتناقض مع مقررات الدين.

- أما ابن رشد فقد تناول بالمقارنة العامة الخطوط الأساسية لكل من الدين و الفلسفة رغم اختلاف منهجيهما، و بين فى كتابه (فصل المقال) اتفاق الدين و الفلسفة قائلا : إن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه و يشهد له. وقال أيضا : إن الحكمة (أى الفلسفة) هى صاحبة الشريعة و الأخت الرضيعة و هما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجواهر و الغريزة. (٤)

• • •

إن من المعقول - بداهة - أن الوحي قد يأتى بأمور عقدية أو تشريعية قد تفوق استيعاب العقل (فردا أو جماعة) فى مرحلة من المراحل أو ظرف من الظروف العقلية...

وليس من حق عقل مسلم أن يرفض الوحي الثابت لأنه لم يفقهه أو يستوعبه، وإنما الواجب عليه أن يعيد الأمور إلى قواعدها الكلية (المعقولة) و أن ينتظر حتى يبلغ العقل رشده و يتمكن من استيعاب الفروع التي استعصت على عقله.

وما استشرت جرأة بعض المسلمين على النصوص و تقديم العقل عليها إلا في تلك الفترات التي ظهر فيها وضع الحديث، و انتشر فيها - بعد ذلك - كم هائل من الأحاديث الموضوعية التي يستحيل أن يقبلها العقل، و التي تتناقض مفاهيمها مع كليات الإسلام العامة و مقاصده الثابتة... و قد كان من خصائص هذه الفترات شيوع الضعف في الدين و العقل معا !!

• • •

و عندما التقى المسلمون بالحضارة الأوروبية بعد سببات استغرق أكثر من قرنين كانوا في مرحلة من أسوأ مراحل تخلفهم. و قد ظهر لهم الفرق الواضح بين واقعهم المتخلف و بين التطور العلمي الكبير الذي أفرزته الحضارة الأوروبية... و قد كان الحل أن يبدأوا بنقد واقعهم و محاكمته إلى الإسلام الصحيح، فلا علاقة للإسلام الصحيح بتخلف المسلمين و لا بفقرهم أو انحطاطهم العقلي أو الأخلاقي. لكن بعض المفكرين قد بدأوا بمحاكمة الإسلام نفسه، و كأن اللادينية و البوذية اللتين تحكمان اليابان هما صانعة حضارتها... و من الطريف أن الإمبراطور

(هيرو هيتو) بطل هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية،
و الذى فرض عليها الاستسلام فى أغسطس ١٩٤٥م هو نفسه
بطل الخروج باليابان من المحنة، و الصعود باليابان إلى مستوى
الدول العظمى علميا و تقنيا و اقتصاديا...

و قد ملكت الهند الذرة و الطائرة و هى تعبد البقر و عدة آلاف
من الأشجار و الحيوانات و الطيور و الأوهام...

و علمانية الغرب و ماديته و البقايا الهشة من النصرانية لم تحل
دون تقدم أمريكا و أوروبا تقنيا و فنيا و اقتصاديا...

و يكاد يسيطر على اقتصاد العالم عبدة المال و مقدسو خرافات
التوراة .. هؤلاء اليهود الذين لا يزيد عددهم عن خمسة
و عشرين مليونا.

فلماذا يراد من الإسلام - وحده - أن ينهزم و أن يغير جلده،
و يؤول نصوصه، لكى ينسجم مع فرضيات و نظريات تتغير من
حقبة إلى حقبة ؟ !!

- و حاشا الإسلام أن يناقض أمرا وصل إلى درجة الحقيقة
العلمية اليقينية.

- و كيف ذلك و هو الدين الوحيد الذى فتح كل الآفاق أمام العلم
النظري و التطبيقي و جعله من مؤكدات الدين و أدلة أحقيته !!
"سنريهم آياتنا فى الآفاق و فى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"
(فصلت : ٥٣)

- و كيف يراد منا وحدنا - نحن المسلمين - بأن نؤمن بعدم وجود المعجزات و الخوارق، و أنها جزء من القوانين الطبيعية بينما لا يوجد نصراني غير ملحد لا يؤمن بالخوارق بالنسبة لعيسى المسيح عليه السلام، بينما يؤمن اليهود كذلك بالمعجزات التي أيد الله بها موسى - و نحن المسلمين قبل اليهود و النصارى نؤمن بالمعجزات التي أجراها الله على يد موسى و عيسى و كل الأنبياء عليهم السلام.

فكيف يأتي مسلم كالشيخ محمد رشيد رضا و هو من هو في فضله و علمه ليقول للمسلمين في مرحلة الانهزام النفسى و الفكرى أمام الزحف الأوربى: إن معنى قوله تعالى "و انشق القمر" "ظهر الحق"؟!

و لماذا لا ينشق القمر معجزة للرسول -محمد صلى الله عليه وسلم - فعلا ؟ وكيف يقول أستاذة الفاضل الشيخ محمد عبده : إن "السجيل" فى قوله تعالى : "ترميهم بحجارة من سجيل" تعنى "الجرائيم" ؟ و لماذا لا تكون حصوات خارقة للعادة أرسلها الله بقدرته فقصت على الكافرين فورا ؟ و هل يعجز الله عن ذلك ؟

و لا نطيل فى تقديم صور من هذه الانهزامية فى تأويل القرآن، فهى معروفة، و قد اشتهر بها أعلام مثل محمد فريد وجدي و طنطاوي جوهرى - رحمهما الله...!!

و هذه الانهزامية لم تخدم الوحي و لا العقل ، لأن العقل نفسه يدرك - أو يجب أن يدرك - أن خالق السنن و القوانين هو وحده القادر على خرقها. و قدرته على خرقها تعنى أن يكون هو صانعها و فوقها، و أنه يحكمها و لا تحكمه ، و إنما تحكم عبيده و خلقه... أما عدم قدرته على خرقها فيعنى أن هذه القوانين فى مرتبة القدرة المطلقة، و أنه لا إله يحكمها ، و يبطل تأثيرها، تماما مثلما يقع تأثيرها بعونه و قدرته!!

• • •

وقد امتدت الانهزامية - بالتالى - إلى الأحاديث النبوية، وقد أراد بعضهم أن يعفى عقله من الإجهاد (و الاجتهاد) فأعطى نفسه حق رفض الحديث إذا كان خبر آحاد... ومعنى هذا أنه يعطى نفسه حق إلغاء أكثر من ٨٥ فى المائة من أحاديث الرسول - عليه الصلوة و السلام - بمجرد اجتهاد عقله المحدود و إمكانيات عصره المحدودة.. ومعنى هذا أيضا إمكان إلغاء التاريخ كله ، الإسلامى منه و غير الإسلامى ، لأن التاريخ البشرى كله خبر آحاد... و نضرب نموذجا لهذا الإنكار الغريب .. فمع أنه قد ورد فى نزول عيسى عليه السلام أحاديث يعضد بعضها بعضا و تبلغ سبعين حديثا على ما نقله العلامة زاهد الكوثري عن المحدث الكشميري، فإن هؤلاء يصرون على إنكار نزول المسيح. و فى

هذا يقول الشيخ محمود شلتوت بعد أن أنكر رفع عيسى إلى السماء حيا: " إنه لا محل له بعد سقوط رفعه حيا" ...
ويعلق على هذا المنهج الغريب - بعقلية علمية رصينة - الشيخ مصطفى صبري (رحمه الله) فيقول: "سبعون حديثا مرويا عن الرسول صلى الله عليه و سلم بالسنة رواة مختلفين من الصحابة و التابعين و من بعدهم، لا بد و أن تكون لها قيمتها التي لا يكفى لإسقاطها التعلل بأنها أخبار آحاد، فلو أتى بمثها سنداً لصحة خبر من الأخبار الواردة في كتب التاريخ لكفى في إفادة اليقين و زاد على الكفاية..."

فما أسوأ هذه السمعة ... سمعة المؤلفين المسلمين عند المؤلفين المسلمين! و بثبت التهمة شبهة الكذب!
- نعم إن المؤلفين المسلمين مهما عظم شأنهم فلا ثقة بأمانة السلف منهم عند الخلف العصريين ، حتى إن الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يصح منها على تقدير مؤلف "حياة محمد" إلا واحد في كل مائة و خمسين حديثا (كما ذكر هو أيضا)، فعلى هذا لا يوزن للأحاديث السبعين الواردة في نزول عيسى إلا أقل من نصف قيمة حديث واحد صحيح".^(٥)

• • •

فكيف وصل الأمر ببعض المجتهدين الى هذه الدرجة ؟ و كيف وصل الأمر برجل مثل الأستاذ محمد حسين هيكل (مؤلف حياة

محمد) أنه لا يجد من العلماء من يصوبون صوابه و يردون خطأه و خطأ منهجه ، بل يجد إشادة عامة تكاد تغطي على خطأ المنهج و تستر عوارفه؟

لقد انطلق هؤلاء الذين ذابوا في العقل على حساب الوحي من انهزامية كبيرة... و قد أرادوا تطويع الوحي لتقلبات العقل الفردي في العصور المختلفة، و بين الأفراد أو الأقوام أو الثقافات المختلفة.. وهذا أخطر شئ !!

- إنه بدلا من أن يبقى الوحي معالم ثابتة وضيئة لكل العصور فإنه يصبح شارات هامشية يحرفها عن مواضعها من يريد في كل عصر، و يخضعها لخريطته الخاصة و معالمه المنهجية المسبقة كل من تتحكم فيه فلسفات أو مناهج مادية أو صوفية أو شخصية أو سياسية!!

- إن رسالة الوحي في التاريخ كله أن يواجه العصور بالثوابت ... و مع تعقد الحياة و تجدد المشكلات توضع ثوابت إضافية لكل مساحة حضارية تضاف إلى رقعة الحياة الإنسانية ... فإذا كان الاقتصاد والنظام المالي بدائيا في العصور السابقة للرسالة الإسلامية فإن الأمر لم يكن يحتاج إلا إلى معالم قليلة .. و كذلك الأمر في النظام الاجتماعي و الأسري و العلاقات الدولية ... فلما جاء الإسلام في مرحلة نضوح العقل البشري و بداية الدخول في مراحل حضارية معقدة جاء الوحي الكريم

بمعالم تستوعب المساحة الجديدة و تقدر على مواجهة مشكلاتها
بما يحفظ الصلة بين الله و المخلوق، و بما يحفظ الحياة المركبة
الجديدة من أن تغوص فى وحل الحرام و الفوضى و بالتالى
تدخل فى ظلمات المادية و الحيوانية و تضيق (إنسانية الإنسان)
حسب تعبير (رينيه دوبو) أو يصبح (الإنسان ذلك المجهول)
حسب تعبير (إليكسس كاريل) أو يصعد بجسمه إلى الفضاء
البعيد بينما تغوص أقدامه (عقله و روحه) فى الوحل!!!

• • •

ولأن الإسلام (دين) ، و لأنه فى وظيفته الأساسية جاء ليضع
الثوابت التى تحقق الصلة بين الإنسان والله ويبين الإنسان
و الإنسان ، فإنه - دائما و فى كل العصور - يجعل الثوابت
قبل المتحركات ، ويضع الوحي قبل العقل .. متى صبح الوحي
و ثبتت حقائقه .. و يرفع العقل إلى المرتبة الثانية الرائعة
الفسحة لأنه يشغل المساحة المتجددة الأكبر...!

و السائق الماهر هو الذى يستوعب ثوابت الطريق لا الذى
يتجاوزها .. و التزامه بها لا يعنى حرمانه من صفات المهارة
و الإبداع . بل إنه لن يبرع - كما لن يبدع كل صاحب علم أو
صناعة أو حرفة أو فن - إلا إذا كان له منهج و ثوابت.

- و من الخل فى الترتيب وضع المتغيرات قبل الثوابت،
و وضع الفروع قبل الأصول ، و النظر إلى الأغصان على أنها

أسبق من الجذور.. و من أكبر الخلل و أسوأ ما يصيب البشرية
أن يقال : إن عقل المخلوق يسبق وحى الخالق.. أو يقال : إن
أسبقية الوحي تكبيل للعقل.. فكأنه إما أن يمضى العقل فى
الطريق بلا ثوابت، و إما أن يخضع الوحي لأهوائه و ظروفه...
و إلا فلن يكون عقلا.. إنه قول لا يقول به عقل... و لا وحى !!

هوامش الموضوع :

- (١) د/ محمود حمدي زقزوق : دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفي - دراسة
بالعدد الثالث من حولية كلية الشريعة بقطر ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م (بتصرف
فى تنسيق الأفكار).
- (٢) المرجع السابق: المكان نفسه.
- (٣) المرجع السابق (بتصرف)
- (٤) المرجع السابق (بتصرف)
- (٥) مختصر موقف العقل و العلم و العالم من رب العالمين، طبع دار السلام
(القاهرة ١٤٠٧) (وقد بسط رده فى صفحات كثيرة و فى المقدمة جزاء الله
خير.. والرد محصور فى الصفحات الثلاثين الأولى بعد المقدمة التى كتبها
للمختصر).

فى فقه التحول للإسلام

العمل لتطبيق الشريعة

فرض عين على جيل الصحوة

لم يكن هناك بد من أن ترتبط الصحوة الإسلامية بالدعوة إلى تطبيق الشريعة ، ذلك لأنها - فى محتواها الأخير - (صحوة إسلامية) و ليست مجرد صحوة تائية فى الصحراء تبحث عن أى طريق ..

وكيف تعتبر إسلامية إذا لم يكن جوهرها (شريعة إسلامية) و مهما التزمنا نحن المؤمنين بهذا الدين العظيم بالتسامح، و بالدعوة الحكيمة، و بإقامة الجسور بيننا و بين كل الناس ، فإننا لا نستطيع أن ننكر أو نخفى أننا نرنب و نسعى لتطبيق شريعة الله... إنها حلمنا و هدفنا من كل كتاباتنا و نشاطاتنا.

والذين يتخيلون (صحوة إسلامية) لا تسعى لتطبيق الشريعة، إنما يخدعون أنفسهم و أمتهم ... فليس هناك (أمة إسلامية) بدون شريعة إسلامية. إنها فى هذه الحال أمة من ورق ، أو من عهن منفوش ، أو هى (صورة) تافهة، حتى و لو كانت صورة أسد - كما شبيها العلامة أبو الحسن الندوي. و أى طفل فى العالم

يستطيع أن يلعب بصورة الأسد، فهي وصورة العصفور عنده سواء.. ومع هذه الحقيقة التي تبدو بديهية من بديهيات الإسلام، فليست هناك حقيقة تلقى عننا و مقاومة من أعداء الإسلام، و من بعض المحسوبين عليه، مثلما تلقى هذه الحقيقة.

وقد يكون لدى أعداء الإسلام المبررات الحقيقية و الصحيحة لمقاومة تطبيق الشريعة. فهذا التطبيق سوف يضع قطار المسلمين فوق القضبان الصحيحة، ليتجهوا الوجهة الصحيحة في التاريخ، و سوف يقدمون النموذج الإنساني و الأخلاقي للحياة، ذلك الذي تبحث عنه - لاهثة - إنسانية اليوم التائهة... فالشيء الطبيعي أن يحارب (أعداء الإسلام) - صليبيين و يهودا و شيوخين و هنادكة - هذا البعث الإسلامي الذي يدعو الى تطبيق الشريعة و صياغة الحياة وفق مبادئها. و من ثم فلم اندهش عندما قرأت في عدد مجلة المجلة (اللندنية) - الصادر في العاشر من شعبان ١٤٠٤ - تصريحاً لألكسندر هيج، الوزير السابق للخارجية الأمريكية، أن التطرف الإسلامي أخطر على العرب من الشيوعية ثم في الدرجة الثالثة (إسرائيل). و بالطبع يرى (هيج) و أمثاله أن أية مطالبة بتطبيق الشريعة هي تطرف.. و هذا بالطبع - أيضاً - إيقاع بين حكام المسلمين و شعوبهم المسلمة الملحة على تطبيق الشريعة.

لكن كل شئ - فى رأى - مقبول من الأعداء الصرحاء للإسلام عقيدة و شريعة و حضارة. أما أن يقاوم (تطبيق الشريعة) بعض من يصرون على أنهم مسلمون، و بعض من يعمدون الى (نسخ) أحكام الشريعة و إخضاعها لعقولهم البائسة و للأوضاع المعاصرة الحافلة بالانحرافات.. فهذا هو البلاء و الضياع الذى يجب أن تجند الأمة الإسلامية نفسها للتخلص منه. و على كل مسلم فى أى موقع التمهيد العاقل لتطبيق الشريعة و مقاومة كل فكر يحول أو يعوق هذا التطبيق، و فضح كل منافق خان دينه، و باع نفسه لحضارة أعدائنا.

إننا نريدها وقفة فكرية وحضارية عاقلة واعية، و لا نريدها مواجهة عجلة حادة عنيفة تضر أكثر مما تنفع. فليس بالاندفاعات الهائجة تنتصر العقائد أو تتغير النفوس أو تتسم التحولات الكبرى فى التاريخ. وكل المطلوب هو الحركة و المصارحة و الإصرار على الهدف، و الثقة فى أن وعد الله لن يتخلف: «والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا و إن الله لمع المحسنين». و فى هذا البحث الوجيز نوضح الصلة الوثيقة بين الصحوة الإسلامية و مطلب الأمة الإسلامية بتطبيق شريعة الله التى هى الجناح الثانى للإسلام، و نكشف أبعاد المعركة التى تدور بين جمهور الأمة ، وبين الذين خانوا أمتهم ، أو الذين

تتكبوا الطريق عن اجتهدات خاطئة، فوقعوا فريسة الضغوط
الفكرية الأيديولوجية الوافدة..

الشرعية جاءت لتحكم و لم تأت عبثا

من البديهيات العقلية و النقلية - أن كل ما ورد فى القرآن - إنما
جىء به ليصوغ حياة الناس، و ليهتدى الناس به، و لم يأت (فكرا
محضاً) و لا (ترفاً) و لا (للسمر) و لا (للغناء) به .. فما كان
الله ليعبث مع الخلق.. حاشاه سبحانه و تعالى عن ذلك علواً
كبيرا.

و القرآن و السنة الصحيحة هما المصدران الأساسيان للذان لا
ينطلقان عن الهوى، و إنما هما وحى يوحى. و العمل بأوامرهما
و اجتناب نواهيهما يمثل الترجمة الحية و التطبيق العملى لشرعية
الإسلام التى لا يقوم الإسلام - فى هذه الحياة - إلا بها.
و شرعية هذا الدين هى دستوره و قانونه و صبغة الله التى
أنزلها ليهتدى بها البشر فى دروب الحياة... و هذه الشرعية
يتناغم فيها الثبات و التطور ... فكل ما ورد فيه نص هو
(الثبات) ... و كل ما ترك الله التفصيل فيه هو (التطور) ...
و هذه الشرعية واجبة التطبيق على كل المسلمين بدءاً من
الرسول صلى الله عليه و سلم و حتى آخر مسلم تقوم عليه

القيامة ، و لا عذر لمسلم إذا كان قادرا على الحياة فى ظلال هذه الشريعة و لم يسع للحصول على هذه الحياة ، فكيف الشأن بالذين بيدهم تطبيق هذه الشريعة على أنفسهم أو أسرهم أو مجتمعاتهم و ينصرفون عن ذلك الى مبادئ عاجزة صنعها بشر، و يريدون تطويع الشريعة للأوضاع الفاسدة، و ليس تقويم الأوضاع الفاسدة لكن تصبح صالحة...

و فى القرآن ترد آيات كريمة موجهة إلى الرسول عليه الصلاة و السلام تأمره باتباع هذه الشريعة و رفض اتباع الأهواء البشرية...

وكل ما وجه للرسول - ما لم يرد ما يخصه له - هو أمر للأمة كلها رجالها و نساؤها، حكامها و محكومياتها...

تقول الآيات للرسول و للمسلمين من ورائه :

"ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها و لا تتبع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا و إن الظالمين بعضهم أولياء بعض و الله ولى المتقين. هذا بصائر للناس و هدى و رحمة لقوم يوقنون". ثم تقول الآيات : "أفأريت من اتخذ إلهه هواه ، و أضله الله على علم ، و ختم على سمعه و قلبه ، و جعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون" (الجاثية : ١٨-٢٣). و قد أخبر الله تعالى عن نبيه بقوله : "و ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" (سورة

(النجم). و قال : "و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا".

وقال : "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول" (النساء : ٥٩).

و حذرنا من مخالفته فقال : "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم".

و فرض على المؤمنين طاعته لأنها من طاعة الله فقال : "من يطع الرسول فقد أطاع الله" (النساء : ٨٠).

و أخبر بأن ترك الفعل كفر أو ظلم أو فسق، فقال تعالى : "و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون". و قوله : "و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون". و قوله : "و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون". و قال : "و ما كان لمؤمن و لا مؤمنة إذا قضى الله و رسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم" (الأحزاب : ٣٦)..

فهذه الآيات توجب تطبيق الشريعة بصيغ مختلفة تسد كل أبواب الشك و التأويل.

• • •

و الذين يقاومون تطبيق الشريعة لا يمكن أن يكونوا مسلمين إذا كانوا واعين بما يفعلون. فهم - بسلوكهم هذا - يصفون الله سبحانه بالعجز عن الفهم للمشكلات المتجددة، و يفضلون عليه

تشريعاً قاصراً محدوداً كالتشريعات البشرية. و هم - كذلك - يكادون يحكمون بالإلغاء على كل القرآن إذا ما اعتمدنا الراى القائل بأن كل القرآن تشريع. و على أقل تقدير - و هو تقدير الغزالي وابن العربى - فهم يلغون خمسمائة آية هى آيات الأحكام، وإذا كان (إلغاء) العمل بآية قرآنية صريحة الدلالة نوعاً من الكفر فبماذا نسمى إلغاء خمسمائة آية على أقل تقدير؟..

تطبيق الشريعة

صحوة لعلاج الأمراض الخلقية

لم تتواكب الدعوة الى تطبيق الشريعة مع الصحوة الإسلامية عبثاً أو مصادفة. فالذى يعى المستوى الأخلاقى الذى انحدرت اليه الأمة الإسلامية سوف يدرك كم كان ضرورياً - لدى كل المخلصين - أن تكون المطالبة بتطبيق الشريعة لعلاج الانحدار الأخلاقى عملاً من أوجب الضرورات .. لقد ساد أمتنا خلال القرن الأخير - بتأثير الغزو الثقافى و التحلل الداخلى - فوضى أخلاقية بحيث لم تعد هناك روابط أخلاقية بين عناصر المجتمع... و قد ساعدت النظريات الوافدة على هذا التفسخ المشين.

و بعد أن أفلمست - فى عصرنا الحديث - كل النظريات
المستوردة والقوانين الوضعية وأصبح المسلمون - بل
والبشرية كلها - على شفا جرف هار ، وانتشرت - فى ظل غيبة
شريعة الله - كل الموبقات ، فأصبح بوسع شخص واحد (كما
وقع فى بريطانيا ذات الشرطة الرهيبة) أن يقتل عشرين، أو
أكثر ، و أصبح بعضهم يتباهى بأن هوايته قتل النساء أو
الأطفال، و أصبحت السرقة فى بلاد المسلمين - و فى غيرها -
عصابات دولية منظمة قد تتعامل مع الشرطة - أحيانا - بشئ
من التنسيق (و عدم الإحراج)، و أصبح رئيس دولة عربية
عرف بقوته و جبروته عاجزا - باعتراف وزير داخلية - عن
القضاء على (حي) من الأحياء المحلية بجامعة إسلامية عريقة،
تباع فيه (المخدرات) على قارعة الطريق كما تباع الفواكه
الشعبية.... و أصبح الموظف لا يعمل إلا وفق مزاجه الخاص،
و على قدر (الراتب) الذى يتقاضاه من وجهة نظر تقييمه له ،
و تفشت الرشاوى فأصبحت تطلب علنا ، بل أصبح بعض
(المتطرفين) يحاول البحث عن فتاوى تجيز الرشوة حيث إن
(الأجور) لا تكفى للحياة ، و أما الوساطة فهى قاعدة ثابتة من
قواعد النظم البعيدة عن الإسلام، و بلغ السيل الزبى فى
(السراقات الكبيرة) من شعوب ضعيفة مكافحة ، مع التستر
عليها....!!

و أما الفحش فله - فى بعض المدن الإسلامية - شوارع
و أحياء مشهورة ، و من وراء الفحش يثرى - بالملايين -
عشرات من تجار الفاحشة ، سواء كانت فاحشة ظاهرة أو فاحشة
تتستر بالفن الرخيص... و من خلف هذه الشوارع الحافلة بالبذخ
و الفحش و الخمور تقبع ملايين تكافح من أجل الحصول على
رغيف الخبز و على ضرورات الحياة...

أ فلا يحق للمسلمين فى كل قطر إسلامى العمل على تطبيق
الشريعة - بعد أن أفلسست أمامهم النظريات الواقدة ، وبعد أن
منوا بكل الهزائم فى ظلال القوانين الوضعية التى يسهل - كل
السهولة - النفاذ من ثغراتها لتحقيق كل الجرائم و حماية كل
المجرمين ؟ !!

أجل ... إن الأمة الإسلامية - فى عصر الصحوة - تتأدى من
أعناقها و تستصرخ و لاة أمورها و مفكرتها المخلصين - و ليس
العملاء لحضارة أعدائنا بجناحيها الغربى و الشرقى الشيوعى...
تتأديهم و تستصرخهم أن يقودوها فى رحلة العودة إلى تطبيق
الشريعة.. و أن يكونوا مخلصين فى تحقيق هذا المطلب
المصيرى مهما واجهتهم الضغوط الصليبية أو الصهيونية أو
الشيوعية أو عملاء هذه التحديات... و إلا فإن المنحدر الأخلاقى
الذى تعاورت على سوقنا إليه عوامل داخلية و خارجية سوف
يصل بنا إلى أوحش العواقب.

و فى كل يوم تتقل (الصحافة) و تتقل (الشاشة المرئية) صوراً من الانحطاط الأخلاقى تترك بصماتها على أجيالنا المسلمة ، و تقف الحكومات الإسلامية و كأنها عاجزة عن صد هذه الأوبئة الأخلاقية و القيم العلمانية (اللا دينية) التى تدفع الى التفسخ و الإذلال ، و توجب على الأمة التى لا زال فيها نبض حياة أن تهب مدافعة عن أخلاقها و قيمها و أصالتها... و هكذا كان لزاما على الصحوة الإسلامية أن تضع الدفاع عن أخلاق الأمة فى أساسيات مهامها ، و أن يكون لها موقفها من ظاهرة التردى الأخلاقى.

- و كان (تطبيق الشريعة) هو أهم الأسلحة التى تمسكت بها الصحوة الإسلامية فى معركة إعادة هذه الأمة المسلمة الى سالف أخلاقها التى انتصرت بها ، و فتحت بها العالم.

الهجوم على الإسلام

أيقظ الشعور بضرورة تطبيق الشريعة

لقد كان شيئاً أشبه بالخيال أن يجد المسلمون - و هم يقاومون الغزو الثقافى الأوروبى - جماعات من المسلمين قد خانت دينها و انضمت الى صفوف الأعداء.... و قد لبسوا فى خيانتهم للإسلام أقنعة مختلفة ، فتارة يحاربون الشريعة بحجة أن الإسلام

عقيدة شخصية ، و أنه لا نظام فيه ، بل هو شأنه شأن أى دين يدع ما لقيصر لقيصر . و تارة يقولون بضرورة (التطور) - بدون ثوابت - أو يقولون بأن الإسلام مجرد كليات أقرب إلى المواءمة الأخلاقية، أو يشككون فى الأحاديث و قيمتها ، أو يقولون بأن العصر يوجب قصر هذه الأحكام على عصر السلف..... و هكذا تنتوع (الأقنعة) و الاتهامات منذ على عبدالرازق و حتى حسين أحمد أمين.. و كلها تهدف الى (إلغاء الشريعة) و تحويل الإسلام الى عقيدة ميتة كالعقائد المنتشرة فى الأرض.. ومع كل ذلك فالواقع يشهد أن الشريعة الإسلامية وقفت - كما يراها أبناؤها و خصومها - شامخة قادرة على استيعاب كل مشكلات العصر.. متجاوزة كل مراحل التشكيك ، و الإرجاء ، و التعطيل التى يتعلل بها خصومها من الخارج والداخل.

و من هنا بدأ أعداء الشريعة يغيرون مواقعهم، و قسموا صفوفهم قسمين - قسما يحارب تطبيق الشريعة بوضوح شديد، ما دام تطبيق الشريعة قد أصبح مطروحا طرحا عمليا، بل بدأ تطبيقه فعلا فى بعض البلدان، و أصبح قاب قوسين أو أدنى فى بلدان أخرى. و هؤلاء معروفون ، سواء كانوا من القوى الخارجية المعادية للإسلام دينا و حضارة، صليبيين كانوا أو يهودا أو

وثنيين أو شيوعيين ظاهرين أو مستترين أم من عملاء هذه القوى الذين حاولوا إخفاء هويتهم لكن الأمة كشفتهم.

و قسما آخر يحارب تطبيق الشريعة بنفاق شديد.. و هذا الصنف هو الميكروب المؤذى الذى يدخل الى الأحشاء ، و يحاول أن يغزو العقول بمغالطاته المفضوحة، و بجرأته العمياء على دين الله و قوله فيه بالهوى. و يكاد هذا الصنف أن ينسخ شريعة الله، و أن يهدم قواعدها قاعدة قاعدة.. و هو - مع عدم تخصصه و مع انقطاع صلته بالشريعة - يمنح نفسه حق القول فيها أكثر مما يسمح للعلماء و المتخصصين الذين اتصلت كل حلقات حياتهم بالشريعة.. فهو وحده المجدد، و الفقيه ، و العصري...

و المهم أن هذين القسمين تصديا لتطبيق الشريعة، و كانا السبب المباشر فى إيقاظ الوعى العام لدى المطالبين بتطبيق الشريعة، من موقع الشعور بالغيرة و المسؤولية.

تورط بعض المسلمين المثقفين فى الدعوة الى تعطيل الشريعة

لم تقف المأساة التى يعانىها المخلصون للإسلام و المطالبون بتطبيق الشريعة - عند حربهم الضروس مع خصوم الإسلام فى

الخارج ، و مع المنافقين فى الداخل ٤ بل إن المأساة - فى مرحلة الصحوة - قد امتدت لتشمل بعض المتقنين المسلمين الذين لا نكاد نشك فى إخلاصهم... فهؤلاء - من منطلق القرف الفكرى و الوقوع تحت ضغط أيديولوجيات زاحفة - قد راحوا يبحثون عن تبريرات لإرجاء أو تعطيل تطبيق الشريعة. فتارة يقولون بضرورة بناء العقيدة و السكوت عن تطبيق الشريعة ، وتارة يقدمون مبررات أخرى للتعطيل ... و يعرف كل المسلمين أنه لا قيمة لتطبيق الشريعة بدون (عقيدة)...

لكن اعترافنا هذا لا يعنى إرجاء تطبيق الشريعة بدعوى غرس العقيدة، فالحق أن تطبيق الشريعة هو دعم لغرس العقيدة ، و هو تهيئة لمناخ نظيف يساعد على السمو النفسى.. أما مفاصد البعد عن تطبيق الشريعة فلا يمكن أن تسمح بتكوين بناء عقدي سليم.. إنه لا يوجد مسلم ينكر قيمة العقيدة لكن الرسول عندما دخل المدينة طبق الشريعة فوراً مواكبة للعقيدة... فمحذور (العقيدة) وهم شاع لدى كثيرين ... و هناك محذورات أخرى يطرحها الخائفون من تطبيق الشريعة.. و الجدير بالذكر أن أغلب الذين يدعون لتطبيق الشريعة الإسلامية - على امتداد العالم الإسلامى - يعرفون جيداً كل محاذير الطريق التى يروجها رافضو التطبيق سواء ما يتصل بالعقيدة أو غيرها.... إنهم يعرفون أن بعض الحكام قد يستغلون تطبيق الشريعة الإسلامية، للتخلص من

بعض خصومهم، أو للتفكير - بصورة مكرسة - من تطبيق الشريعة مستقبلا أو لاجتذاب الجماهير فى مرحلة احتياجاتهم اليهم... أو لغير ذلك، كما يقول هؤلاء... و هم يعرفون تماما أن تطبيق الشريعة، بدون أرضية عقائدية بل و بدون مجتمع إسلامى، قد تكون مغامرة تسيء الى المستقبل الإسلامى كله، إذا كان هناك سوء نية...

- و هم يعرفون أن كثيرا من الحكام فى عالمنا الإسلامى يتوهمون أن مصالحهم تتعارض مع تطبيق الشريعة، سواء فى مجال (تركيبية) أسلوبهم فى الحكم أو (تركيبية) انتماءاتهم الفكرية، أو (تركيبية) مشكلات بلادهم التى ربطوها بقوى خارجية... أول شروطها و ضغوطها أن تكتسح المفاهيم الإسلامية من الطريق.

- و هم يعرفون - أيضا - أن ثمة مذاهب و أفكارا و اتجاهات و مستحدثات و أقليات و أوضاعا فرضت نفسها... و أصبحت ضغوطا لا بد أن ينظر إليها بعين الاعتبار عند التنادى بتطبيق الشريعة الإسلامية..

- و هم يعرفون - تمام المعرفة - أن (الإيمان وحده لا يعصم المجتمع) و أنه (ليس بالشريعة وحدها يقوم المجتمع الإسلامى)... كما يقول المترددون فى تطبيق الشريعة (!!)
- و نحن نقول لهؤلاء و لأمثالهم:

لقد خرج مذهب (مالك) إمام (أهل المدينة) و الحديث، النابع من أعماق أعماق الجزيرة.. خرج فسيطرت على الشاطئ الآخر الأوربي ... و ذلك حين ساد الأندلس طيلة أيام الوجود الإسلامي بها و حين ساد الجناح المغربي للعالم الإسلامي: ليبيا، و تونس، و الجزائر، و مراکش ... و بقاعا أخرى في العالم الإسلامي.

و من قلب الجزيرة العربية أيضا خرج الإمام الشافعي ... فلما رحل إلى مصر استحدث آراء جديدة ما زالت كتب الفقه تشهد لها، فاصلة بين هاتين المرحلتين في عملية المواجهة الحضارية التي تعرض لها الشافعي ... فهي حريصة على أن تقول : (قال الشافعي في القديم) و أن تقول : (و قال الشافعي في الجديد) ... و مئات من الشواهد تدل على أن هذه الشريعة قسادة على مواجهة عصرنا بكل مستحدثاته. و نحن نقول للذين يطالبون بإرجاء تطبيق الشريعة (ألف سنة) حتى يمكن غرس العقيدة - كأنكم ترون أن المسلمين الآن ليس لهم عقيدة... أى أنكم تكفرون المسلمين من حيث لا تدرون و كأنهم مثل أهل مكة قبل الإسلام. و بصرف النظر عن هذه اللفتة التي يمكن أن ينشأ حولها خلاف ، فالخطأ الآخر الذي لا يحمل خلافا هو أنهم ينسون أنه خلال الفترة المكية لم تكن (الشريعة) قد نزلت أصلا ... بل كان الأمر الذي تنزل من السماء هو أمر العقيدة فقط، و لو كانت ثمة

أمور شرعية قد نزلت ، لما جاز للمسلمين أن يجتهدوا في إرجاء تنفيذها ... حتى تثبت عقيدة بعضهم. و لقد كان بينهم مذبذبون دائما و تطبق عليهم الشريعة أيضا. فما ينزل من السماء واضحا لا يجوز أن يكون تطبيقه محل أخذ و رد ... و لو كان أمره يحتاج الى التدرج لفعله الشارع الحكيم من نفسه... و ذلك مثلما حدث في أمر الخمر - مثلا..

و ثمة أمر ثالث خطير لم يحلله هؤلاء المؤرخون الذين يستلهمون من الفترة المكية جواز إرجاء تطبيق الشريعة، بحجة بناء العقيدة. فلو كان أمر الشريعة جائز الإرجاء لما طبقه النبي عليه الصلاة و السلام فور دخوله الى المدينة ... و إذا كان أهل مكة قد أخذوا حقهم - كما يزعم هؤلاء - في التمهيد لتطبيق الشريعة .. فهل يا ترى أخذ أهل المدينة هذا الحق .. و ذلك مع أنهم أول من طبقت عليهم الشريعة ؟ و هل كان بناء (عقيدة) أهل المدينة قد استمر ثلاثة عشر عاما حتى فرضت و طبقت أوامر الشريعة فور الدخول؟

أليس هذا وهما تاريخيا كبيرا يسلكه كثير من المؤرخين دون وعي؟ و حتى - عند هذه الحالة - هل نحتاج في بناء العقيدة لثلاثة عشر عاما توازي (الفترة المكية) أم سنستمر قرونا نبني العقيدة ... متذرعين بذلك لعدم تطبيق الشريعة؟ و متى تبدأ فترة العقيدة يا ترى؟ هل ستبدأ مع بداية كل (فترة حكم) كل

حاكم في العالم الإسلامي؟ أم ستبدأ من القرن الخامس عشر للهجرة؟ أم بعد خروج إسرائيل و زوال الأحكام العرفية و إبادة جرائيم الغزو الفكري؟

و أخيرا في هذه النقطة : هل ترك الرسول عليه السلام و المسلمون تطبيق الشريعة لأن مجتمعاتهم - دائما - كان بها منافقون بلا عقيدة؟ و كان بها يهود و أقليات أخرى؟... و الإجابة معروفة... فتطبيق الشريعة ضرورة لمقاومة إسرائيل و لعودة القدس و لكشف المنافقين و زحزحتهم عن مواقعهم... و تعطيل الشريعة هو شريان حياتهم الكبير... و للأسف يدعوننا بعض رافضى التطبيق الى الانشغال بتحقيق الرفاهية أولا... مع أن الرفاهية لن تأتي إلا بالتطبيق الصحيح للشريعة ، وأيضا: فهل غاياتنا العليا، نحن المسلمين، هي تحقيق مجتمع (الرفاهية) أولا ، أم جعل كلمة الله (عقيدة و شريعة) هي العليا أولا... ثم تأتي الرفاهية أو (مجتمع الحياة الكريمة) في الدرجة الثانية؟ و هي نتيجة مضمونة لتطبيق الشريعة بإذن الله .

و هل كان المسلمون في المدينة ، و هم الذين تعرضوا للفاقة و الحروب المتواصلة و المضايقات الاقتصادية من قريش و أهل الجزيرة جميعا، هل كانوا يعيشون حياة كريمة؟.. و يناضلون - كما يطالبنا بعضهم - هداهم الله - في معركة التنمية و تحقيق العدل الاجتماعي؟ أم كانوا يؤثرون على ذلك كله ، و يضحون

بذلك كله، في سبيل أن تكون كلمة الله (عقيدة و شريعة) هي العليا؟

و لماذا لا يقال - و هو الواجب أن يقال فعلا - إن تطبيق الشريعة هو الوسيلة الأولى ، و السبيل الأقوم ، لتحقيق كل الغايات التي يطالب بها هؤلاء...

إنها وسيلة - حقا - لكنها وسيلة لا يمكن أن يتجاوزها شخص ينتسب الى الإسلام ... بل نقولها - صراحة - إنه لا يتجاوزها عن عمد و إصرار إلا مرتد عن الإسلام، و عدو له، محارب لله و رسوله،

و هكذا يجب أن نقول الحق ، و أن نفرق تفرقة كاملة بين الأبيض و الأسود حتى لا تختلط الألوان ، و تتعثر رؤانا للأشياء في عصر الصحوة الإسلامية.

أعداء تطبيق الشريعة من المرتدين

نحن نقولها صراحة : إنه مع ظهور الصحوة الإسلامية ، بل قبلها بقليل ، ظهر بعض المتقنين على مسرح الفكر معلنين - بجلاء - ردتهم عن الإسلام. و هؤلاء ، وإن أصروا على أنهم مسلمون إلا أننا لا نملك - بكل مقاييس الشرع الصريح - إلا أن نقول عنهم: إنهم مرتدون.

و لقد حاولنا - عبثا - أن نبحث لهم عن مخرج يخرجهم من دائرة (الردة) فلم نجد لمحاولتنا مخرجا ، فهؤلاء يسخرون أقلامهم و فكرهم من فوق أعلى المنابر، و بوعى كامل ، لتكذيب القرآن، و التشهير بالشريعة و تحويل حسناتها الى سيئات، و وصفها بأبشع الصفات، و المطالبة - بصراحة تامة - بنسخ نصوص القرآن القطعية الدلالة... و لقد بدأت هذه الطائفة المتنفذة تظهر وجهها المرتد القبيح مع إعلان تطبيق الشريعة فى بعض البلاد الإسلامية (و نحن نأمل أن يكون تطبيقا شاملا بإذن الله) ثم بدأت - فى خيانة غريبة - تتحرك ضد (الحق الطبيعي) للمسلمين فى أن يطبقوا شريعتهم على أنفسهم ... أفليس هذا مصادرة لحق من حقوق الحياة فى عصر يتشدد بعض أبنائه بالحرية و حقوق الإنسان.

و هذا موقفها على المستوى العملي....

أما على المستوى الفكري ، فقد قادت الحملة على تطبيق الشريعة مجلة مصورة أسبوعية ^(١) تصدر فى بلد عربى كبير وأصدرت سلسلة مقالات تخلو من كل فقه بالشريعة ، ولم يكتبها شخص له أدنى صلة بهذه الشريعة ، بل إن خلفيته الفكرية معروفة للجميع... و فى مقالاته - للهجوم على تطبيق الشريعة - ينتهى الى الآراء التالية ننقلها من كلامه بنصها...

إنه يبدأ فى التشكيك

فى مفهوم الإسلام نفسه

و هو يقول فى ذلك : (إن لفظ الإسلام قد يفهم منه : إما الإسلام كما أوضح مناهجه كتاب الله و السنة الصحيحة لنبيه، أو الإسلام كما فصل أحكامه و أقام صرح شريعته المتكاملة جمهور الفقهاء منذ وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام و حتى أغلق باب الاجتهاد (!!)) فى بداية القرن الرابع الهجرى، وتم تدوين الكتب الأساسية فى الفقه ، فى القرن الخامس (!!)) أو الإسلام الذى هو محصلة عقائد المسلمين فى زماننا نحن بما تحويه من معتقدات دخيلة و خرافات لا صلة لها بالدين).

ثم يرد الكاتب على قاعدة أن الإسلام هو العودة الى أحكام الشريعة و يتمثل فى القرآن و السنة الصحيحة بأن هذا لا يمكن أن يقبل ببساطة ، بل هو مشكلة معقدة ، و يستدل بأن القرآن لم يورد عقوبة لا للربا و لا للخمر، و يقول ما نصه : (فالقرآن إنما يستهدف تقويم المؤمن يذكره بما يجلب له رضا الله عنه أو سخطه عليه و هو يغتر من أن المؤمن حقا سيتجنب الخمر و الربا من تلقاء نفسه دون حاجة الى تخويله بعقوبة دنيوية تجعل من إحجامه عن الربا و الخمر رياء). ثم يقول الكاتب : إن

الرسول عاقب على شرب الخمر بضرب النعال، و عاقب أبو بكر بأربعين جلدة ، و جاء عمر بن الخطاب فجعلها ثمانين جلدة.. ثم يتساءل : فبأى العقوبات الثلاث إذن نلتزم، و القرآن لم ينص على واحدة منها؟ و لم اختار المسلمون من بعد و حكومة ضياء الحق فى باكستان الحد الذى فرضه عمر؟ و هل بمقدور المسلمين فى زماننا نحن أن يختاروا غير أئمين عقوبة أخرى غير تلك الثلاث؟ (انتهت تساؤلاته بنصها فى هذا المقام)...

و نحن نقول لهذا الكاتب و أمثاله (٢) : إن الإسلام هو الدين المنزل على محمد و المحفوظ فى القرآن المتواتر، (الذى لا يأتيه الباطل) ، و فى السنة الصحيحة و فى فقه الصحابة و تابعيهم لأحكام القرآن والسنة. و على أساس حفظ مصادر هذا الإسلام حفظا لم يتأت لمصادر أى دين آخر أسلم الكثيرون ، و على أساس هذا الفهم يعيش ٩٥ فى المائة من المسلمين ، و ما نسميه مشكلة ليس (إلا مشكلة فى ذهنك تفتعلها عن عمد و ضلال... أما قولك إن الإسلام لم ينص على عقوبة دنيوية، و ضربك المثل بالربا و الخمر ، فهذا قول من لم يعرف (ألف باء) الشريعة، ذلك لأن عقوبات الشريعة على ثلاثة مستويات : حدود منصوص عليها كحدود السرقة و الزنا و الحراة (وهى عقوبات لا تقبل التفسير، و تطبق بشروطها) (و القصاص) و هو حد خاص بالقتل، و ثالثا عقوبة لم تستطع معرفة مجرد اسمها وهى

عقوبة (التعزير) و هي عقوبة يقدرها الحاكم بقدر المصلحة العامة ، و تختلف من شخص لشخص، و هي عقوبة تدل على مرونة التشريع (فيما ليس فيه نص). و فلسفة هذه العقوبة أن من الناس من يكفيه ليردع ضرب بالنعل و من الناس من لا يكفيه إلا الحبس و التشهير، بل من الناس من يردع بكلمة نابية واحدة... لأن له كرامة و شرفا ... و عقوبة (التعزير) تصلح بما فعله الرسول و أبو بكر و عمر و بغير ما فعلوه مما يناسب كل عصر.. (فخبر في جريدة يومية عن شخص قد يصيبه بالشلل) ... و هكذا ... فالمهم أن يتحقق (التعزير) و هو لا يكون في الحدود المقررة و التي لا يعتدى عليها إلا مرتد ... و هذه هي شريعة الله لمن يؤمن بها «فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، و إن كثيرا من الناس لفاسقون» . و ليس عند هؤلاء حدود يقفون عندها... فالسنة النبوية الصحيحة الثابتة في كتبها السنة المجمع عليها (على الأقل) - فضلا عن كتب السنة الأخرى - ليست جازمة في التشريع ... و حتى القرآن الكريم ، فلا بد لكى يؤخذ بحكمه من أن تكون آياته قطعية الدلالة محققة لمصلحة مجموع الأمة ... و عليه فما لم تحقق هذه الآيات (المصلحة) فتلغى (!!) أحكامها .

و هكذا الإنسان إذا انشغل عقله ، و خان عقيدته الصالحة، فإنه يكون مؤهلا لأن يرفض الحقيقة مهما كانت واضحة كالشمس

فى رابعة النهار.. و لعل هذا الإفساد الواضح كان من أهم أسباب ردود الفعل ، فاستيقظ فى الأمة الوعى بحقيقة دينها ، و أصبح مطلب تطبيق الشريعة مطلباً شعبياً عاماً يطرح نفسه فى إطار الصحوة الإسلامية..

الصحوة الإسلامية

و الطريق لتطبيق الشريعة

إن أحدا من المفكرين المسلمين لا ينكر أن الطريق لتطبيق الشريعة ليس مفروشا بالورود. فإن القوى الخارجية تتربص بالمسلمين و تحول بينهم و بين شريعتهم بكل الطرق، كما أن الغزو الثقافى قد أوجد طبقة مسلمة (عازلة) تقاوم عودة الأمة الى دينها، بالإضافة الى كثير من الاتجاهات الفاسدة التى تراكمت كالاقتصاد الربوى و الإعلام الهابط، و هى تحتاج الى جهود متدرجة فى تغيير مجراها.. و من هنا فالفكر الإسلامى الحديث لا يمنع من عمليات التمهيد، و التدرج فى كثير من القضايا التى تحتاج لهذا التدرج ... لكن - مع ذلك - لا نملك إلا أن نقول: إن هناك مغالطات لا بد من فضحها فى موضوع تطبيق الشريعة الإسلامية ، فبعض الدول تزعم أنها فى طريقها للتطبيق منذ سنوات طويلة، و قد شكلت لذلك لجائنا استغرقت

سنوات طويلة لتطوير (القانون البحري) حتى يوافق الشريعة ...
أما القانون البري الذي يعيشه كل الناس في كل يوم - فإنه يأخذ
الدرجة الثانية..

و إذا تجاوزنا عن هذا الاستخفاف بعقل الأمة المسلمة، و نظرنا
الى ما يسمونه (بالتقنين) نظرة جد - مع أن كل المؤشرات
تشكك في ذلك - فإننا نجد أن سير هذه الدول نحو تطبيق
الشريعة سير خادع، بالرغم من الإعلانات المتكررة عن "لجان
التقنية" فكل المفاصد و المنكرات يحافظ عليها بعناد شديد، بل إنها
لتزداد .. فالخمر تباع في أصغر المحلات و المقاهي
و الفنادق، و شوارع - بأكملها - مخصصة للدعارة المستترة
باسم الفن، و الحرب على تطبيق الشريعة من جهة اليساريين
و العلمانيين تحتل الصفحات الطويلة من المجلات الكبرى
الرسمية، و الإعلام يعرض - حتى في نهار رمضان - أحط
الأفلام و المناظر، و شرب الدخان و الشاي شئ طبيعي لا يجوز
الاعتراض عليه في نهار رمضان... لدرجة أنك لا تحس بأنك
في عاصمة إسلامية و مع ذلك يزعمون أنهم في طريقهم لتطبيق
الشريعة... فهل هذا أمر تقبله العقول؟ و أية عقول هذه يا ترى؟
إننا لا نمانع في التمهيد لتطبيق الشريعة، لكن هذا التمهيد لا
يكون بالإعلانات المتكررة عن لجان التقنين. و لكن التمهيد
يكون:

- (أ) بتنقية التلفاز من الأفلام الساقطة، و الصحافة من الحرب على تطبيق الشريعة قولاً أو فعلاً، والمذيع من الأغاني الماجنة .
- (ب) بتنقية المناهج الدراسية فى المدارس و الجامعات من كل ما يخالف الشريعة و الإسلام كله.
- (ج) بتوفير العمل الشريف لكل المنحرفين لصوصاً كانوا أو زناة يتاجرون بأعراضهم أو أعراض غيرهم حتى لا تكون لهم حجة فى التطبيق...
- (د) بتنقية الاقتصاد و المؤسسات التجارية و المالية من الفائدة و كل صور الربا و الاحتكار و الفساد - و هذا أمر ميسور جداً بعد نجاح تجربة البنوك الإسلامية و شركات المال و التأمين الإسلامية.
- (هـ) بمنع الاختلاط فى المدارس و الجامعات ، و برمجة الدراسة بحيث يخصص وقت لصلاة الظهر - جماعة - فى المدارس و الجامعات فضلاً عن الأوقات الأخرى التى يمكن أن توجد فيها دراسة..
- (و) بتطبيق مبدأ الشورى فى كل المؤسسات و الأجهزة ، صغيرة أو كبيرة .
- (ز) بفتح أبواب الحلال فى كل الأمور ، و إغلاق أبواب الحرام فى كل الأمور.

و مع كل ذلك فإن النية لو صدقت ، و لو فهم العضوان الأساسيان للأمة، و هما الحكام و الشعوب أن سفينة حياتهم واحدة، و أن حضارتهم لن تقلع سفينتها إلا بتطبيق شريعة الله ، إذ لا إسلام بدون شريعة، و لا معنى للنص الدستوري بأن الإسلام دين الدولة بينما الشريعة مصادرة و محرومة من التطبيق.. فهذا الأسلوب الذى نخدع به أنفسنا لن نخدع الله به... لو حدث هذا فسوف تنهار كل محاولات الإيقاع بين الحكومات الإسلامية و المطالبين بتطبيق الشريعة الذين يمثلون (٩٥) فى المائة على الأقل من مجموع الأمة... و سوف نجد - فى هذه الحالة - ألف وسيلة لتيسير كل عسير، و إحلال الحلال مكان الحرام، و الحصول على مئات البدائل التى تنسجم مع شريعتنا "صبغة الله و من أحسن من الله صبغة" إنها شريعة العدل التى لا حياة للمسلمين إلا بها "و كذلك جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها و لا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، و إن الظالمين بعضهم أولياء بعض و الله ولى المتقين" . صدق الله العظيم

هوامش الموضوع :

- (١) مجلة المصور المصرية
- (٢) يدعى (حسين أحمد أمين)

دور الاجتهاد الفقهي

فى التأصيل الإسلامى للصحة

أترانى أعبر عن نزعة مذهبية (ظاهرية أو حزمية أو غزالية)
و أنا أعمد إلى وضع بعض "الضوابط" - بكلمتى تلك - فى
طريق معلم كبير من معالم مسيرة "المسلم المعاصر" !! .. "معلم
الاجتهاد" ؟ ... لا ضير !!

• • •

العقل المسلم وحده - من بين المدارس العقلية المختلفة - هو
العقل الذى يجب ألا يصده شعار ما - مهما يكن - عن محاولة
سبر أغوار الحقيقة...

إن الحقيقة غايته، و أمله، و ضالته التى "أنى وجدها التقطها"...
إنه لا يثنى عنها - إذا كان إسلامياً صادقاً - أن يكون بعضها
مع عدوه ... أو أن يعترف بوجودها مع محاوره ، أو أن يدفع
فى سبيلها مهراً غالياً !!

و بالتالى : لتكن كلمتى هذه إحياء لنهج آخر، أو إشارة إلى ضوابط أراها ضرورية ، المهم .. أن يكون "الرأى الآخر" فى الصورة دائما، على الأقل ، لتكون المسيرة أكثر وعيا و حيطة!!

* * *

لقضية الاجتهاد فى الحق جذور تاريخية خطيرة مرتبطة بدور الفقه فى الحضارة... فإن "علم الفقه" - من وجهة نظر تاريخية - هو الطابقان الاجتماعى و الاقتصادى فى بناء الحضارة الإسلامية... و بالتالى فإن وصول هذا العلم إلى تقديم إطار ملائم متناغم مع الجوانب الحياتية الأخرى - يشكل بعدا خطيرا من أبعاد قضية الحضارة الإسلامية!

والمقياس فى عطاء هذا العلم ، ينحصر فى الجوانب الملحة التالية :

- أ - مدى ارتباط هذا العلم بالأرضية اليقينية الإسلامية ، التى لا جدل فى أنها خلاصة الكليات التى يمتاز بها الإسلام.
 - ب - مدى قيادة هذا العلم - و لا أقول مدى تعبيره - للدورة الحضارية التى تمر بها الأمة.
 - ج - مدى إسهام هذا العلم فى تحقيق الشخصية الحضارية المتميزة للأمة، و فى تقديمها للإنسانية كحضارة ذات هوية، و ذات فعالية.
- * * *

و الذين يتتبعون الأسباب الحقيقية لبعض الاتجاهات الفقهية (الفكرية) التي انتظمت أعلاما أفذاذا من أقطاب تاريخنا، على رأسهم ابن حزم الأندلسي، و أبو حامد الغزالي، والإمام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية...

الذين يتتبعون هذه الأسباب ، سوف يكتشفون العوامل الحقيقية (الحضارية) التي جعلت هؤلاء الأفذاذ المجتهدين - يقفون في جانب، و الفقهاء المذهبيين التقليديين يقفون في جانب معاد و مضاد.

و من هذه الأسباب :

- أن الفقه المذهبي قد تخطى دوره في البناء الاجتماعي و الاقتصادي المعاش المنظور، ليصبح "عقيدة" و "هيكلا" أيديولوجيا، يطغى على الأصول الاعتقادية و الفكرية... لقد تحول الرأي الى عقيدة، و تقدمت النافلة الغرض ، و الفرع الأصل !!

- أن الفقه - ممثلا في بعض الفقهاء - قد خان دوره، و أصبح بجحوده أحيانا، و بعدم ارتباطه بالجذور أحيانا، لعبة سياسية تقاد و لا تقود و تحكم و لا تحكم !!

• أن الفقهاء - سامحهم الله - قد فرضوا أنفسهم و جمودهم العقلي بصورة "كنسية" ليست من طبيعة الإسلام، فانقلبوا من حارس للبناء الاجتماعي و الاقتصادي (التحتي) إلى تابع ذليل للأوضاع المختلفة الواقعة التي يحركها البناء السياسي (الفوقي)... يعطونها التبرير الجدلي، و يلوون أعناق النصوص من أجلها ... و من أجل تسويقها !!

• و قد كان لهم دور - بهذا الاستبداد و هذا الجمود - في اضمحلال عديد من الدول الإسلامية، كتغذيتهم الخلافات بين ممالك أندلسية طائفية كثيرة، و كاستبدادهم بدولتي المرابطين (٤٤٨-٥٤١هـ) و الموحدين (٥٢٤-٦٦٨هـ) في المغرب العربي ، حتى أسقطوها .. و كموافقهم إزاء بعض الأوضاع المختلفة في دولتي المماليك والعثمانيين في المشرق العربي !!!

• • •

و من هنا كانت المسيرة المذهبية لابن حزم الأندلسي ثورة فكرية في حد ذاتها ...

فهذا الرجل العظيم لم يخش سطوة الفقهاء المالكية المتعبدین بمدونة أسد بن الفرات، أو بمدونة سحنون - في عصره !! ، و إنما تدرج - و فق اجتهاده - من المذهب المالكي، إلى المذهب الشافعي... فلما اشتد عوده العقلي مال إلى الظاهرية (نسبة إلى داود بن علي الأصفهاني الظاهري المتوفى سنة

٢٧٠هـ) .. فلما طال باعه ، اجتهد لنفسه ، و كون نظرات متكاملة خاصة، في إطار منهج الظاهرية، أطلق عليها بعضهم لقب "الحازمية" !!

و من هنا أحس الغزالي - أمام الجمود المذهبي التفريعي - بضرورة إعطاء العقل المسلم وثبة تجميعية، ترد نثاره إلى الجذور ، فكان إحياء علوم الدين - الذي أحرق بتأثير ضغوط الفقهاء في مسجد قرطبة الجامع إبان حكم علي بن يوسف الموحيدي - هو هذه الوثبة التجميعية !!

و من هنا - أيضا - كان رفض الإمام ابن تيمية لمناهج الفقهاء في عصره، و ميله إلى الكتابة عن "التوحيد" و "أصول الإيمان" و "الأصول الثلاثة" و "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي و الرعية" و غيرها من المؤلفات المنتمية للجذور، و حتى فتاواه - رضى الله عنه - كانت عملية اجتهادية ترد الفروع - بقوة - لهذه الأصول الكبرى!!

إننى لن أدخل هنا في دوامة تاريخية مسهبة، كي أصل إلى تفسير شاف للعوامل التي أدت إلى بروز هذه الاتجاهات التي تزعما هؤلاء الأعلام الثلاثة ، لكن الأمر الذي يجب التركيز عليه هنا، هو أن "الفقه" باعتبار دوره الاجتماعي و الاقتصادي، هو ركن من أركان الحضارة ، يخضع لقوانينها، و يأخذ مكانه من بنائها العام ... و حين تنفصل لبناتنه (بحكم الجمود أو

التسبب) عن الخط العام الذي يجب أن تسير فيه الحضارة ، يلزم رده - بقوة - إلى مكانه في عملية "إحياء" - كما فعل الإمام الغزالي، أو عملية رد "للأصول" كما فعل الإمام ابن تيمية، أو عملية "إبطال القياس و الرأي و الاستحسان و التقليد و التعليل" (١) كما فعل ابن حزم.

أقول : إنني لن أدخل في دوايمة تاريخية لبيان هذه الأسباب ، لكنني سأكتفي هنا بإبراز بعض الدلالات التي تومئ إلى البعد الحضاري - في الإطار التاريخي - للتيارات الفقهية ذات الطابع الفكري التجديدي، تلك التي وعاءها هؤلاء و تبناها، في وجه موجبات السقوط التي كانت تجتاح العالم الإسلامي في عهودهم...

* * *

لقد ولد الإمام أبو محمد علي بن حزم بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، و مات سنة ٤٥٦هـ...

و تعتبر هذه الفترة - كما هو معلوم - من أنكد فترات تاريخ المسلمين في الأندلس، فخلالها استبدت بأمور الدولة الأموية في الأندلس المنصور بن أبي عامر الملقب بالحاجب، و ما زال أبناؤه ، و من عاصرهم من أمويي الأندلس يتصارعون حتى سقطت الدولة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢هـ، بعد حياة دامت قرابة ثلاثة قرون !!

و بعد هذا السقوط الكبير ، و لمدة استغرقت بقية عمر ابن حزم،
و سنوات بعده، عاشت الأندلس عصرها الهمجي المعروف
بعصر ملوك الطوائف !!

و لقد ذاق ابن حزم مرارة هذه الفوضى، إذ كان أبوه وزيرا،
و وصل هو إلى الوزارة مرتين ، و تعرض بالتالى لنكبات
كثيرة، وصلت به الى اليأس من الأحياء جميعا، و بخاصة من
هؤلاء الفقهاء الذين كان أكبر همهم السباحة مع التيارات
المتصارعة، فى اتجاه منافعهم !!

و لما فشل ابن حزم فى مجال الإصلاح السياسي (من فوق) جنح
إلى مجال الإصلاح الاجتماعي و الاقتصادي (من تحت) ، فكان
الفقه هو المجال الطبيعي لتحقيق هذا الإصلاح (بالإضافة الى
علاقة الفقه بالفكر السياسي الإسلامى).

ولما كان الفقه - بالصورة التى سار عليها الفقهاء فى مدن
الأندلس - قد فقد إشعاعاته ، بل أصبح عاملا من عوامل
التدهور ... لذا ، كان أكبر هم ابن حزم أن يعيد الفقه إلى شبابه،
و الى جذوره (حتى و لو تم ذلك بالحدة و العنف) ، و أيضا ...
ليخلص الفقه من جمودية و أهواء فقهاء الفتنة المنتشرين !

* * *

و الإمام أبو حامد الغزالي ، ولد سنة ٤٥٠ هـ في طوس من أعمال خراسان بفارس ، و تنقل بعد ذلك في العالم الإسلامي حتى مات سنة ٥٠٥ هـ !!

و هذه الفترة التي عاشها الغزالي ، لا تبعد خصائصها كثيرا - في الجناح المشرقي - عن سابقتها التي عاشها ابن حزم في الجناح المغربي من العالم الإسلامي.

ففي هذه الفترة ، كان الصراع الداخلي قد احتدم بين أبناء البيت السلجوقي الحاكم (المسيطر على الخلافة العباسية) مما أدى إلى انتشار الفساد و الاضطراب (و للغزالي رسائل مشهورة تصور هذا الحال)... و نتيجة هذه الخلافات السلجوقية الداخلية برزت "الإسماعيلية" كحركة ناشطة، تبث الرعب في قلوب الناس، وامتد نشاطها إلى العالم الإسلامي كله... و في هذه الفترة أيضا، و بسبب من هذا النزاع ، اكتسح الروم البلاد... و بدأت الحملات الصليبية تهب عاتية على العالم الإسلامي حتى نجحت خلال الربع الأخير من حياة الغزالي أن تكون أربع إمارات صليبية كبيرة (الرها و أنطاكية و طرابلس و بيت المقدس) !!!

لكن .. أين كان ساسة العالم الإسلامي أمام هذه النوازل ؟ .. و من باب أولى : أين كان الفقهاء إبان هذه الظروف ؟ !!

لقد كانوا مشغولين بالتقرب من أمراء المسلمين ، و بالحظوة عندهم : "نفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، و عمل

بمقتضاها، و نبذ ما سواها، و كثر ذلك، حتى نسي الناس النظر
في كتاب الله و حديث الرسول ﷺ ، فلم يكن أحد من مشاهير
أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء" (٢)...

ولم يزل الفقهاء على ذلك، و أمور المسلمين راجعة إليهم،
و أحكامهم صغیرها و کبیرها موقوفة عليهم (...) فكثرت لذلك
أموالهم، و اتسعت مكاسبهم، و في ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن
محمد المعروف بابن البني من أهل مدينة جيان بالأندلس :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم
كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك
و قسمتموا الأموال بابن القاسم
و ركبتموا شهب الدواب بأشهب
و بأصبغ صبغت لكم في العالم (٣)

* * *

و شيخ الإسلام أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبدالحليم بن
تيمية، ولد بخران سنة ٦٦١هـ، و مات بقلعة دمشق سنة
٧٢٨هـ!!

و مولده - رضى الله عنه - كان بعد خمس سنوات فقط من
كسح التتار للخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ ، بعد أن
ظلت هذه الخلافة - طويلا - تترنح آيلة للسقوط!! ، و لم يكن

نقل الخلافة الإسمي إلى مصر إلا استغلالاً سياسياً ذكياً من المماليك الذين انتصروا في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ.

و على امتداد حياة الإمام ابن تيمية، كان شبح التتار يقلق مضاجع الناس، وكانت الصور الباهتة للحكم الفاشل تساعد على قتامة الصورة، و انهيار الوضع الاجتماعي و الاقتصادي!!

و نحن نستطيع - باطمئنان مسبق - أن نرجع إلى مصدر حولي أو موضوعي من المصادر التي أرخت لهذه الحقبة - لنرى كيف كانت الانفصامية واضحة بين القاعدة و القمة، و لنرى عدم إحساس أكثر الفقهاء بالمسئولية التاريخية الملحة، و انشغالهم بجزئيات مذهبية لا تمت إلى التحدى الحضاري بصلة... و فقط... و كنموذج عابر، نقف هنيهة عند نماذج عابرة من تاريخ الحافظ ابن كثير (صاحب البداية والنهاية) لهذه الفترة.

• أحداث (سنة ٧٠٠ من الهجرة النبوية).

و نبدأ العام من أوله:

"ولما كان ثالث المحرم جلس المستخرج لاستخلاص أجرة أربعة أشهر عن جميع أملاك الناس و أوقافهم بدمشق، فهرب أكثر الناس من البلد، و جرت خبطة قوية، و شق ذلك على الناس جداً".

ثم ماذا :

« وفي مستهل صفر وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام و أنهم عازمون على دخول مصر، فائزعج الناس لذلك و ازدادوا ضعفا على ضعفهم، و طاشت عقولهم و ألباهم، و شرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر و الكرك و الشوبك و الحصون المنيعه، فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة و بيع الجمل بألف و جلس الشيخ تقى الدين بن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع، و حرض الناس على القتال ، و ساق لهم الآيات و الأحاديث الواردة في ذلك ، و نهى عن الإسراع في الفرار... و نودي في البلاد لا يسافر أحد إلا بمرسوم و ورقة، فتوقف الناس عن السير و سكن جاشهم».

و نعبّر الزمان شهرين :

"وفي أول ربيع الآخر قوى الإرجاف بأمر التتار، و جاء الخبر بأنهم وصلوا إلى البيرة".

"ثم جاءت الأخبار بأن سلطان مصر رجع عائدا إلى مصر بعد أن خرج منها قاصدا الشام، فكثر الخوف، و اشتد الحال..."

"وخرج كثير من الناس خفافا و ثقالا يتحملون بأهلهم و أولادهم، و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، و جعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد و المشقة على الدواب و الرقاب".

ثم نمضي شهرين مع ابن كثير:

"واستهل جمادى الأولى و الناس على خطة صعبة من الخوف، و تأخر السلطان و اقترب العدو، و خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله في مستهل هذا الشهر إلى نائب الشام، فثبتهم و قوى جأشهم و طيب قلوبهم، و وعدهم النصر و الظفر على الأعداء.... و كان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا و قد دخل القاهرة، و تفارط الحال".

و تمضى الأحوال الاجتماعية و السياسية على هذا النحو.. بل على شر من ذلك !!

لكن .. يبقى السؤال الملح : أين كان فقهاء الأمة من هذه الأوضاع (عدا الشيخ ابن تيمية)؟

• يجيب ابن كثير أيضا (حوادث سنة ٧٠١هـ) :

"وفى هذا الشهر - من السنة المذكورة - ثار جماعة من الحسدة على الشيخ تقي الدين بن تيمية، و شكوا منه أنه يقيم الحدود، و يعزر، و يحلق رؤوس الصبيان".

و أيضا : "وبهذا و أمثاله - من إصلاحات ابن تيمية - حسدوه، و أبرزوا له العداوة، و كذلك بكلامه في ابن عربي و أتباعه، فحسد على ذلك و عودى... و أكثر ما نالوا منه الحبس".

و يستمر ابن كثير (حوادث سنة ٧٠٥هـ):

"و كان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة، و انفراذه بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و طاعة

الناس له و محبتهم له ، و كثرة أتباعه و قيامه فى الحق و علمه
و عمله" !!!

* * *

- و ما أريد أن أقوله من وراء هذه المسيرة بإيجاز ، يتلخص فى:
- * إن الفقه - حين يعرف دوره - يتحول إلى ثورة (تحتية) نهز
البناء الاجتماعى و الاقتصادى كله، و تحميه عند الحاجة !!
- * وهو - حين يؤدي دوره - يصنع - بلغة علمية قانونية -
التحولات التطورية فى حياة الأمة، و يغنيها عن تحولات تفرض
عليها بطريقة انفعالية عفوية، لا علمية !!
- * و الفقه ليس مجموعة تصورات جزئية مفقودة الروابط،
و إنما هو لبنات تقوم على أرضية صلبة ، و تنتمى إلى هيكل
هندسى فنى مدروس !!
- * و الاجتهاد الفقهي ليس سباحة عقلية فى بحار جدلية لا حدود
لها، و إنما هو سباحة فى بحر معلوم الحدود... و اوضح المسيرة
... و اوضح القاع... و اوضح الأهداف!!
- * و على الرغم من الالتزام الشديد لهؤلاء الأقطاب الذين تكلمنا
عنهم بالنصوص ، التزاما بلغ عند ابن حزم حد الرفض للقياس
و الرأى و الاستحسان و التعليل....
- ... على الرغم من هذا ، فإن أكثر الاجتهادات الفقهية التى تعتبر
ثورة ذات بعد تقدمى عضري ... إنما صدرت عن هؤلاء

الأقطاب الكبار، مما يؤكد أن الاجتهاد - بالعودة إلى المصادر،
و برؤية حضارية واعية - إنما يمثل عطاء ثرا مجددا، و انفتاحا
على كنوز تشريعية أكبر من أى تصور!!

• و ابن حزم - و هو أسبق الثلاثة زمانا - هو صاحب رأى
القائل بفرضية كفاية أغنياء كل بلد لفقرائها مأكلا و ملبسا و
مشربا و مسكنا بقوة السلطان.

و هو الذاهب - فى قضية زراعة الأرض - مذهباً يجعل
الزارع للأرض - لا المالك - صاحب اليد العليا ...

و هو صاحب نظرية التعليم الإجبارى (المرحلة الابتدائية) بقوة
القانون، و صاحب رأى القائل بجواز تولى المرأة القضاء(٤)!!!

• و لا يقل الإمامان الجليلان.. الغزالي و ابن تيمية - عن ابن
حزم، عطاء، و اجتهادا رائدا، مع انطلاقهم جميعا من
النصوص!!

• • •

إننى أرجو - و أدعو الله - أن يكون عقل المسلم المعاصر
مدرسة فسيحة للاجتهاد، لكنى أرجو - أيضا - أن يكون هذا
العقل مدرسة واعية بالدور الحضارى للفقهاء و الفقهاء.. تخطط
له.. و تضع البرامج و الأهداف القريبة و البعيدة، فى ظل
ارتباط ذكي بالأصول .. و بالواقع.. و بالتحديات الحضارية
التي تواجهها الأمة الإسلامية ... و ما ذلك على الله ببعيد !!

هوامش الموضوع :

- (١) اسم كتاب لابن حزم ، تحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني.
- (٢) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٣٧، بتحقيق المرحوم سعيد العريان.
- (٣) المرجع السابق ص ٢٣٥، و انظر ظهر الإسلام ٣٨/٣ للأستاذ أحمد أمين.
- (٤) ينظر المحلى و الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ، و يراجع : آراء من تراث الفكر الإسلامى للأستاذ فتحى عثمان، نشر دار القلم.

الحياة الروحية فى إطارها الإسلامى

الحياة الروحية

ضرورة لاستئناف الحياة الإسلامية المعاصرة

ليس من شأننا أن نتتبع نشوء التصوف - أو نزعة التركيز على الجانب الوجداني و العاطفي و الانعزالي - منذ ظهر فى تاريخنا الإسلامى، و إن كنا نؤمن بقدر كبير من اليقين أن هذا النزوع - كمنهج متميز - لم يظهر فى تاريخنا طيلة القرن الهجرى الأول و لا فى عصر الدولة الأموية بصفة عامة - و ليس معنى ذلك أننا نمضى مع تلك الآراء التى ترى أن الصوفى أبا هاشم الكوفى، المتوفى سنة ١٥٠هـ، كان أول من تسمى بالصوفى، و أنه يمثل حدا فاصلا بين الزهاد من رجال التصوف و بين غيرهم ممن ساروا سيرة السلف.

و يرى بعضهم أيضا أنه قريبا من منتصف القرن الثاني الهجري بنى أول خانقاه للصوفية بالرملة في فلسطين. و الذى يهمننا هنا أن نوضح أن الزهد فى الدنيا و الاستعلاء عليها ظهر عند ظهور الإسلام، لكنه لم يمثل تيارا مستقلا و لا نزعة مذهبية خاصة طيلة قرن و نصف من تاريخنا الإسلامى. فلم يقل أحد أن ورع الصحابة و التابعين و زهدهم كان شيئا متميزا عن بقية النسيج الإسلامى، بل كان الزهد و الاستعلاء مجرد خيطين من خيوط هذا النسيج. و بهذا الزهد فتح المسلمون الدنيا حين أعطوا الدنيا حجمها الحقيقى، و نظروا إليها على أنها مجرد معبر و قنطرة و أنها وسيلة لا غاية، و أنها لا تستأهل عمر الإنسان كله، بل إن ما عند الله خير و أبقى. و حتى الإمام الحسن البصرى، الذى يعد فى نظر الكثيرين أشهر ممثلى حركة الزهد فى الصدر الأول، فقد حظى بحب المسلمين جميعا و بتقديرهم لشخصيته المتوازنة. و قد كانت له فى ساحة الإصلاح و التربية مواقف مشكورة مأجورة، مع أنه كان ينزع إلى حياة روحية خالصة فى عبادته^(١).

لكن الأمور قد تطورت مع بداية النصف الثانى من القرن الثانى تطورا واضحا، و بدأت حركة الزهد التى سارت حتى نهاية النصف الأول من القرن الأول وفقا لقواعد الدين، بدأت تفهم الزهد لدى كثير من ممارسيه؛ على أنه ليس استعلاء على الدنيا

و إخضاعاً لها لكلمة الله و تضحية بالحياة الفانية من أجل
الآخرة الباقية - بل فهمت الزهد على أنه رفض للحياة الدنيا
و انعزال عنها و ترك لساحة الجهاد في صف الحق ضد ساحة
الباطل الواسعة الممتدة. و بدأ هذا الفهم يشق طريقه و يزداد
أعواناً و أتباعاً حتى أصبح هو الغالب و المسيطر و لم يعد
النسيج الإسلامي الرزين الذي لا يمثل الزهد إلا خيطاً من
خيوطه هو النسيج السائد كما كان الأمر في الجيل الأول ، بل
بولغ في تكثيف خيط الزهد على حساب الخيوط الأخرى التي
بدأت تدق و ترق إلى جانبه.

• و بدأ يظهر الخلل في مفهوم الزهد و في معناه. و بدأ هذا
الخلل يتسرب إلى سائر أعضاء الجسم الإسلامي. و بالطبع فإن
الجيل الأول من المتصوفة لا يتحملون كثيراً من تبعه هذا
التطور، فقد كانت كثرة منهم بريئة منه، حريصة على تحقيق
الانسجام و التوازن و التكامل بين الخيوط. فقد كان زهد إبراهيم
ابن أدهم المتوفى سنة ١٦١، و داود الطائي المتوفى ١٦٥ ،
و الفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ هـ. و شفيق البلخي
المتوفى سنة ١٩٤ ، و غيرهم زهداً معتدلاً بالرغم من أنهم
ذهبوا في أساليب الزهد و الرضى إلى أبعد حد ممكن ، لكنهم -
مع ذلك - كانوا بعيدين عن الأحوال و الآراء و النظريات التي
ظهرت في التصوف في العصر المتأخر. (٢)

* و خلال القرن الثالث الهجري بدأ واضحا أن التصوف ظهر كنزعة مستقلة و أنه بدأ يدخله من التأثيرات غير الإسلامية شئ ما و بدأت بعض المفاهيم غير الإسلامية تظهر مختلطة بالمفاهيم الإسلامية، و بدأ الزهد ينتقل من حركة فردية إلى تيار جماعي. و قد حفل القرن الثالث بعدد كبير من مشايخ الصوفية من أمثال ذي النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ، الذي يعد من أكبر الشخصيات التي شكلت المذهب الصوفي من أمثال أبي تراب النخشيبي المتوفى سنة ٢٤٥ هـ، و بشر الحافي المتوفى سنة ٢٢٧ هـ، و سري السقطي (المتوفى ٢٥٣ هـ)، و يحيى بن معاذ الرازي (المتوفى سنة ٢٥٨ هـ)، و أبي يزيد البسطامي (المتوفى ٢٦١ هـ) و أبي حفص الحداد (المتوفى حوالي سنة ٢٦٥ هـ)، و حمدون القصار (المتوفى سنة ٢٧١ هـ)، و أبي سعيد الخراز (المتوفى سنة ٢٧٦ هـ)، و أبي حمزة البغدادي (المتوفى سنة ٢٨٩ هـ) و سهل بن عبد الله التستري (المتوفى سنة ٢٧٣ أو ٢٨٣ أو ٢٩٣ هـ)، و أبي الحسين النوري (المتوفى سنة ٢٩٥ هـ)، و الجنيد البغدادي (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ)، و عمرو بن عثمان المكي (المتوفى سنة ٢٩١ أو ٢٩٧ أو ٣٠١ هـ) و أبي عثمان الحيري المتوفى سنة ٢٩٨ هـ) و مشاد الدينوري (المتوفى سنة ٢٩٩ هـ).

و لكن مع تلك التأثيرات غير الإسلامية يمكن القول إجمالاً بأن صوفية هذا العصر قد اتخذوا القرآن و السنة ميزاناً لجميع ما يقولون به من بحوث نظرية و ما يشعرون به من حالات وجدانية و كان من نتيجة ذلك أنهم عنوا بوجه خاص بناحية الزهد و العبادة و الناحية الأخلاقية في التصوف. يقول سهل بن عبدالله التستري : "بنيت أصول مذهبنا على ست : التمسك بكتاب الله ، و الاقتداء بسنة رسول الله - صلى الله عليه و سلم - و أكل الحلال ، و عدم إيذاء الخلق و لو آذونا ، و البعد عما نهى الله عنه، و التعجيل بالحقوق" ، و يقول الجنيد : "ما أخذنا التصوف عن القيل و القال ، لكن عن الجوع و ترك الدنيا و قطع المألوفات و المستحسنات". (٣)

و لهذا فنحن نستبعد بعض ما نسب إلى متصوفة هذا العصر من مثل ما نسب إلى ذى النون المصري من أنه قال : (طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه) (نقلاً عن تذكرة الأولياء : ١/١٧١)، فمثل هذا القول يتنافى مع الأصول التي ذكرها سهل التستري و الجنيد و غيرهما.

و خلال القرنين الرابع و الخامس دخل التصوف مجالات جديدة، و بدأ الكلام يظهر عن الشريعة و الحقيقة و الطريقة... و هذا يمثل منعطفاً جديداً ابتعدت به جمهرة كبيرة من الصوفية عن المنهج الإسلامي، و تأثرت فيه بحركات الباطنية و التأويل

و التأثيرات الفارسية و النصرانية، و هذا ما جعل رد فعل آخر قوى يظهر فى العالم الإسلامى ممثلاً فى المذهب الظاهري الذى قام على رفض التأويل وتفسير النصوص بظاهر دلالتها اللغوية. و أيا كان الأمر، فإن الاتجاه الذى قال بأن صور العبادات لا قيمة لها إلا من حيث دلالتها عن حقائق روحية الاتجاه، مقتبس من الإسماعيلية الباطنية، و كان من نتيجته ظهور قوم نسبوا إلى التصوف زورا و بهتاناً قالوا برفع التكاليف الدينية، و الركون إلى الحقيقة و ليس الشريعة.

على أن أصحاب هذا الاتجاه كانوا قلة مرتدة لم يؤبه بها، و قد قاومها الصوفية الصادقون أنفسهم. فقد كان جمهور الصوفية يرون أن التحقيق الكامل بالحقيقة لا يتعارض مع أوامر الشرع فحسب، بل إن مراعاة الشرع لا يتجزأ عن نظامهم الصوفى العام. (٤)

و قد استطاع الإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ - مع بعض التحفظات - أن يقف ضد هذا التيار الباطنى و أن يمزج التصوف بالقرآن و الحديث مزجاً تاماً، مستخرجاً من المجموع مادة واحدة. (٥)

و مهما يكن من رأى فإن أبا حامد الغزالي قد نجح فى نقطتين لا خلاف حول نجاحه فيهما : الأولى : تقديسه للشريعة، و الثانية :

وقوفه في وجه مذهب وحدة الوجود، مؤكداً أن العبد عبد والرب رب، ليس كمثلته شيء!!

الصوفية و العمل الاجتماعي و التربوي

إن زهد المسلم هو أمر فردي و تربية ذاتية . و هذا الزهد لا يمنعه و لا يعطيه الحق في الانعزال عن الحياة و رفض مناصرة الحق فيها و إثارة الفقر و الذل على الغنى و القدرة و العزة . و ليس زهدا إطلاقا هذا الزهد الذي لا يقدر صاحبه على العطاء و الفاعلية و الإنتاج... فالزهد الفقير كذب لا معنى له. إن الزهد يكون مع القدرة و الغنى. و قد كان عبدالله بن المبارك - رحمه الله - من أغنى الناس و أكثرهم تجارة و عملا و ربحا و كان أيضا من أكثرهم زهدا. و قبل عبدالله بن المبارك كان الخليفتان : عمر بن الخطاب ، و عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنهما - من أكثر الناس قدرة و امتلاكاً و عطاء و زهدا. و لم يرفض واحد من هؤلاء العمل الاجتماعي و خدمة الناس و تحمل أضخم المسؤوليات دون أن يتظاهر أحدهما بالزهد أو يضع لنفسه شارة معينة. و لذلك حين رأت (الشفاء بنت عبدالله) طائفة يسمون أنفسهم بالنساك و وجدتهم يسيرون في الشوارع خائعين منطوين فسألت عنهم فقيل لها:

إنهم الناسك فأجابت : كان والله عمر بن الخطاب إذا تكلم أسمع
و إذا ضرب أوجع و إذا مشى أسرع و هو الناسك حقا.
و قد كانت للمجاهد الصوفي (سهل التستري) جهود ضخمة ضد
جماعات المبتدعة المارقين أدعياء الصلاح و الزهد الذين
يطلبون الدنيا - مع التظاهر بالزهد - من أخس الطرق، و أسوأ
السبل، و قد أصدر كتابا عنوانه: "المعارضة و الرد على أهل
البدع و أهل الدعاوى في الأحوال"، (٦)

و قد وقف كثير من الزهاد في وقف موجبات الفساد و المنكر
و النفاق، و للتستري في كتابه (التراث الصوفي) كلام طيب في
هذه المجالات، و منه قوله: "و اعلموا يقينا أنكم لن تجدوا في
زمانكم من عمل بعلمه إلا ما شاء الله، و كل من كان أكثر علما
كان أسوأ حالا" قيل: و كيف ذلك؟ و لم صار هكذا؟ قال: "لأنهم
صيروا علمهم مأكلة لحم أو طلب رياسة أو متاع الدنيا أو رياء
وسمعة و تركوا الأمر الأول و آثروا الدنيا على الآخرة"، (٧)

و يقول التستري أيضا : "سيكون في آخر الزمان العلماء ثلاثة
أصناف : صنف منهم عرفوا المنكر فأنكروه بقلوبهم ، و قوم
منهم عرفوا المنكر فيهم فخالطوهم عليه، و قوم عرفوا المنكر
فأنكروه بالعلم جهدهم، و هؤلاء أعز من الكبريت الأحمر"، (٨)

و قد كان الحسن البصري - رضى الله عنه - إماما في باب
تغيير المنكر بالحكمة و الموعظة الحسنة و قد كان يفضل سياسة

تغيير المنكر بأقل قدر ممكن من الخسائر لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، فلهذا كان يقول للناس: إن الحاكم الظالم إما أن يكون عقوبة من الله، و العقوبة لا ترد بالثورة عليها، وإما أن تكون بلاء يستأهل الصبر حتى يحكم الله. و حين سنحت له الفرصة ليعظ الوالي ابن هبيرة نصحه بأحكم قول و أشجعه على خلاف مداراة صاحبيه في نصيحة ابن هبيرة و هما : ابن سيرين و الشعبي. و من الطريف أن ابن هبيرة أعطى الحسن أكثر من زميليه مع أنهما قالاه له قولاً لينا، فقال زميلاه في ذلك : سفسفنا له فسفسف لنا. (١)

و على خطا الحسن البصري كان الفضيل بن عياض مع خلفاء بني العباس نصحا و توجيها... و كان يقول: لو أن لي دعوة مستجابة ما صيرتها إلا في الإمام (يقصد أن في صلاح الإمام صلاحا للعباد و البلاد). و حكايات الفضيل بن عياض مع هارون الرشيد عديدة و متنوعة. و عندما قال له هارون الرشيد: عظمي، قال له الفضيل : ماذا أعظمك؟ هذا كتاب الله بين الدفتين: انظر ماذا عمل بمن أطاعه و ماذا عمل بمن عصاه؟ ... إنني رأيت الناس يغوصون على النار غوصا شديدا و يطلبونها طلبا حثيثا ... أما والله لو طلبوا الجنة بمنثلها أو أيسر لنالوها. فقال له هارون : عد إلي، قال الفضيل : لو لم تبعث إلي لما أتيتك و إن انتفعت بما سمعت مني عدت إليك. و قد قال له

الرشيد يوما : ما أزهديك ! فقال له الفضيل : أنت أزهدي مني ...
قال الرشيد: وكيف ذلك!!؟ قال الفضيل : لأنني أزهدي في الدنيا،
و أنت تزهدي في الآخرة . الدنيا فانية و الآخرة باقية.(١٠)
و قد كانت لذي النون المصري مواقف أيام الخليفة المتوكل
العباسي كما كانت لحاتم الأصم مواقف أيام الرشيد أيضا. و قد
رفض سهل التستري علاج الحاكم ابن الصفار حتى يرد كل
مظلمة للناس عنده، ثم لما عالجته عرض عليه مالا و ثيابا فلم
يقبلهما.(١١)

وأما بشر بن الحارث فقد رفض لقاء الخليفة المأمون، كما أن أبا
الحسين النوري قال للخليفة الموفق، عندما طلب إليه أن يعرض
حاجته: حاجتي أن تنساني. و القول نفسه قاله أبو الحسين
النوري (م : ٢٩٥هـ) عندما سأله الخليفة الموفق عن حاجته ،
فقد قال له : إن حاجتي إليك هي أن تنساني، فلا تراني مقربا
بقبولك و لامطرودا بهجرك.

و قد كانت للإمام أبي حامد الغزالي مواقف رائعة في الثبات
على الحق و الجهر في وجه المنكر، دون أن يخشى في الله
لومة لائم و من ذلك نصحه لأحد ملوك خراسان، فقد قال
له : يا أسفا! إن رقاب المسلمين كادت تسقط بالمصائب و رقاب
خيلك كادت تسقط بالأطواق الذهبية. كما كتب إلى أمير مدينة
طوس بخراسان يقول له : "اعلم أن مدينة طوس أصبحت خرابا

بسبب المجاعات و الظلم، و أن دعاء أهل المدينة (طوس) مجرب بالخير و الشر... فأتق الله".

و قد كانت للشيخ الجيلاني مواقف مع بعض الخلفاء. و عندما ولي الخليفة المقتدى قاضيا ظالما قال له من فوق المنبر : "وليت على المسلمين أظلم الظالمين ، ما جوابك عند رب العالمين أرحم الراحمين". فارتعد الخليفة و بكى و عزل القاضي الظالم.^(١٢)

و على الدرب نفسه من الجهاد بالكلمة و الأمر بالمعروف، كان أبو الحسن الشاذلي و له مواقف مع السلاطين كثيرة مشهورة.. و قد كان للصوفية في اليمن خلال القرنين السادس و السابع الهجريين أثرهم البالغ في تغيير نظام الحكم و أسلوبه . و المؤرخون يذكرون تلك الصداقة الوطيدة بين مؤسس الدولة الرسولية الملك المنصور بن عمر بن علي بن رسول (٦٢٩-٦٤٧هـ) و بين الفقيه الصوفي محمد بن أبي بكر الحكم (م : ٦١٧هـ) و صاحبه الصوفي محمد بن حسين الجلياني (م : ٦٢١هـ). و يقال إنهما اللذان قويا عزمه في الاستيلاء على الحكم بعد مشاهدتهما تعنت نظام الحكم السابق و فسادده ، و بهذا تدين الدولة الرسولية للصوفية في ظهورها.^(١٣)

و أيا كان الأمر ، فقد اجتهد كثير من الصوفية في تغيير الأحوال و تربية أنفسهم و نوبهم و في الإصلاح الاجتماعي بالوسائل الحكيمة ... و قد وجدوا أن من بين منافذ التغيير الاجتماعي

نصح الحكام و توجيههم و بيان الرأي فيهم، و هو الأمر الذى يتطلب شجاعة لا يملكها إلا الزاهد فى الدنيا. (١٤)

* * *

و فى العصر الحديث لم يخل بعض قادة الحركات الإسلامية و دعاة الإصلاح و الوقوف فى وجه الحضارة المادية الأوربية - لم يخل هؤلاء من شحنات روحية وازنت فى نفوسهم بين التربية و التعليم و المادة و الروح، و من هؤلاء الشيخ المجاهد عبد القادر الجزائري - رحمه الله رحمة واسعة - فقد ضم إلى جهاده فى مقاومة الاحتلال الفرنسى تربية روحية و أخلاقية، و كانت له نوازع روحية أضفت على شخصيته كثيرا من الحكمة و الرضا بقضاء الله و الأمل فيه.

و قد كان الطابع الروحي بارزا فى فكر الفيلسوف المجدد (محمد إقبال) صاحب فلسفة الذات . و قد عرف "إقبال" حقيقة الإنسان و قيمته فأراد أن يلقيه درس الإنسانية الحقة بما تتطوى عليه من جانب إلهي، و قد دعا الناس إلى أن يتخلقوا بأخلاق الله و أن يكتسبوا صفاته حتى يكتب لهم الخلود... "وهنا تصبح العقبات و المشكلات فى طريق الرقى الروحي للإنسان لا شئ، فلا الزمان و لا المكان و لا العلم المادي بأسره و لا الشيطان نفسه بقادر على أن يثنى الإنسان عن عزمه على الرقى الروحي الدائم و شوقه إلى الاتصال بالحقيقة الخالدة و الوصول إلى الله". (١٥)

و كما يقول أستاذنا الإمام أبو الحسن الندوي : فقد تربي إقبال في مدرستين إحداهما تقليدية هي مدرسة الشهادات، أما المدرسة الأخرى فهي مدرسة توجد في كل زمان و هي أقدم مدرسة على وجه الأرض، إنها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان فيحملها الإنسان معه في كل مكان هي مدرسة القلب و الوجدان ، و هي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية و تمدها بالقوة الروحية (١٦) ومعلمو هذه المدرسة يتمثلون في الإيمان و الحسب الجارف للرسول - صلى الله عليه و سلم - و القرآن بما له من مآثر لا توجد إلا فيه. (١٧)

و في رأى إقبال أن التصوف الصحيح مصدر من مصادر المعرفة لأنه نزوع روحي قوى، و هو يرى أن هناك مصدرين آخرين للمعرفة هما الطبيعة و التاريخ.

و قد كان للأثر الروحي مكانه في شخصية الشيخ محمد عبده بتأثير خال والده الذي كان مريدا سنوسيا يدعو الى إحياء الكتاب و السنة ، و ذلك حين كاد الشيخ محمد عبده يهجر الأزهر بأساس من علومه ، فاستطاع الشيخ درويش خضر أن يعيد للفتى محمد عبده ثقته بنفسه فظلت ثقته بالشيخ درويش قائمة و مؤثرة. و في كل حين كان الشيخ درويش يلتقى به فيعلمه كثيرا من السلوك و الأخلاق بل و ساعده على أن يختلط بالناس فيعلمهم

و يصلح حالهم لأن الناس هم مجال الدعوة و حقل النصائح و الإصلاح. (١٨)

و هذا لم يمنع الإمام "محمد عبده" من مهاجمة بعض الطرق الصوفية لما رآه من انحراف بعض هذه الطرق عن الدور المنوط بها، فالتصوف الذى تعلمه الشيخ "محمد عبده" من الشيخ "درويش خضر" تعلم منه كيف أن الزهد ليس تواكلا و خنوعا و دجلا و إنما هو تربية للنفس و نور فى القلب يؤدى إلى حركة حياة ، و إلى جهاد دائم من أجل صلاح هذه الأمة المسلمة. فحين رأى بعض التقابل بين هذه الصورة و بين الواقع ثارت نفسه دون أن يقلل من شأن التربية الروحية حيث استفاد هو فى شخصه و دعوته للإصلاح بهذه التربية. (١٩)

و قد نشأ الشيخ حسن البنا - رحمه الله رحمة واسعة - فى بيت علم و دين و اتصل بالطريقة الحصافية الصوفية التى تركت فى نفسه أثرا روحيا طيبا. و كان أكثر ما لفت نظر الشيخ حسن البنا شدة الشيخ الحصافى فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مهما كان فى حضرة عظيم أو كبير ، كما أنه أفاد من سلوك الشيخ و أتباعه كثيرا من الأخلاق الفاضلة، أو بتعبير الشيخ حسن البنا: "العفة الكاملة عما فى أيدي الناس، و الجد فى الأمور، و التحرز من صرف الأوقات فى غير العلم أو التعلم أو الذكر أو الطاعة و التعبد ، سواء كان وحده أم مع إخوانه

و مريديه، و حسن التوجيه لإخوانه و صرفهم عمليا إلى الأخوة و الفقه و طاعة الله". (٢٠)

و هكذا كان للجانب الروحي تأثيره في القديم و الحديث على شخصيات كثيرة - لم نقدم إلا أقل القليل منها ، و الرائع أن هذه الشخصيات - و هذا هو الجدير بالذكر - كان لها دور ريادي في الأعمال الاجتماعية و التربوية... و قد آمنت بأن الطاقة الروحية لا تتحقق قيمتها إلا إذا أضاعت الحياة و صبغتها بالصبغة الإلهية ، و ارتفعت عن أن تكون نزعة فردية إلى مستوى التغيير الحضاري العام.

دول برز فيها الجانب الروحي

و الحقيقة أنني وقفت كثيرا عند بعض الدول التي ظهر فيها الطابع الدعوي و الروحي إذا ما استثنينا عصر الرسالة و الراشدين الذي يكاد يكون معروفا لدى جمهرة علماء المسلمين.

و من الدول التي برز فيها هذا الطابع و التي وقفت عندها دولة المرابطين التي دفعتني دراستي لها إلى أن أؤمن بأنها من أعظم الدول الإسلامية ، و أن الجانبين الدعوي و الروحي كانا متآلفين فيها.. و لهذا المنحى تعرضت هذه الدولة الإسلامية الكبرى لحقد

المستشرقين و طعنهم فيها ، و التقليل من جهادها. و قد نشأت هذه الدولة في موريتانيا و المغرب الأقصى و أجزاء من المغرب الأوسط في منتصف القرن الخامس الهجري (٤٤٨-٥٤١هـ) (١٠٥٦-١١٤٧م) و قامت على مبادئ عقدية و روحية متينة أهمها الإيمان الراسخ بالكتاب و السنة و التمسك بمذهب الإمام مالك في الفروع ، و الرباط في سبيل الله رباطا يقوم على تربية إسلامية روحية قوية.

و لقد كان مؤسسو هذه الدولة نماذج صالحة للعباد الصالحين و المجاهدين الأبرار و العلماء العاملين... هكذا كان عبد الله بن ياسين ، و يحيى بن إبراهيم ثم يحيى بن عمر، ثم أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي تنازل عن الملك الذي أقامه طواعية لابن عمه يوسف بن تاشفين مؤثرا الجهاد و الاستشهاد على الرئاسة و الملك .. و متنازلا عن كل متاع الدنيا حتى عن زوجته الذكية الرائعة الجمال زينب النفزاوية، و ظل يجاهد في أدغال إفريقيا لمدة ثمانية عشر عاما حتى مات شهيدا بسهم مسموم.(٢١)

و بالتربية الروحية و الجهادية نجح المرابطون في توحيد المغرب و الأندلس و في القضاء على المرتدين مدعى النبوة في قبائل غمارة و يرغواطة، و في القضاء على طغيان مملكة غانا الوثنية و في إنقاذ الأندلس من طغيان النصارى في موقعة الزلاقة المشهورة في رجب سنة ٤٧٩هـ (أكتوبر ١٠٨٦م) (٢٢).

و إلى جانب المرابطين، و على أشلائهم، قامت دولة الموحدين التي خلفتهم و حكمت المغرب و الأندلس و تلقب مؤسسها "محمد ابن تومرت" بالمهدي، و اعتمد منهج التربية الروحية، و كان له مريدون كثيرون ، و لولا ما نسب إليه من قوله بعصمة نفسه و من ولوغه في دماء المرابطين ، لكان له شأن آخر في تاريخنا الإسلامي... مع أن دولته - على أية حال - بقيادة تلميذه الوفي الشجاع المؤمن "عبدالمؤمن بن علي" قد وحدت المغرب و الأندلس .. كما أن دولة الموحدين قد أنقذت الأندلس في موقعة الأرك سنة ٥٩١هـ.

و قد ظهر الطابع الروحي في الدولة المهدية السودانية و في شخص مؤسسها محمد أحمد بن عبدالله الذي كان منذ صغره ميالا إلى التدين و الزهد ... و في شبابه انخرط في سلك الطريقة الصوفية (السمانية) ... و قد كان لجهوده الروحية و السياسية شأن كبير معروف ، و أقام دولة في السودان ، و هزم الإنجليز في معارك كثيرة، و قتل غوردون و دانت له السودان بالطاعة.

و على هذا الطريق الروحي ظهرت السنوسية. و كان مؤسسها السيد محمد بن علي السنوسي، رحمه الله (١٧٨٧-١٨٥٩م) - و هو جزائري الأصل من مستغانم - دائم التفكير في أحوال المسلمين و سبب تأخرهم ، و كيفية العودة بهم إلى الإسلام في

نقائه، و حركته . و قد التزم بفقہ الكتاب و السنة، و تعرف على الحركات الصوفية في عصره، و درس منهج العودة الإسلامية إلى الطريق السليم فهذه تفكيره إلى أن الرجوع إلى الكتاب و السنة مع فتح باب الاجتهاد هو أسلم طريق... كما رأى أن إنشاء المراكز الإصلاحية التي أنشأ منها نحو ثلاثمائة تحت اسم (الزوايا) و ربط جميع المسلمين في وحدة قائمة على أساس ديني و روحي هما الوصيلتان لإحياء المسلمين. و قد حاربت السنوسية كل زهد خامل و كل بدع لا أصل لها في الدين، و وقفت في وجه حركات التنصير التي كانت تريد أن تكتسح إفريقيا. (٢٣)

و أخيرا : فنحن نؤمن بتوازنية الإسلام و بتكاملته ، و نرفض أن ينافس كلمة "إسلام" أى مصطلح آخر ، و ندعو المسلمين جميعا إلى نسبة أى شرف لدينهم .. و لقد فرعنا عند ما قرأنا لمؤرخ معاصر أن سبب حماس عقبة بن نافع للإسلام و إخلاصه في الجهاد أنه كان - كما يقول هذا المؤرخ المعاصر - "رجلا عنيفا متشعبا بهذا الحماس الصوفي الذي يدفعه إلى التماس الشهادة و بيع نفسه من الله". (٢٤) فإن عقبة بن نافع التابعي العظيم الذي استشهد سنة (٦٤هـ) لم يكن ينطلق من حماس صوفي - ليس لأن كلمة التصوف والاتجاه الصوفي لم يكونا قد ظهرا بعد فحسب - بل لأن عقبة و التابعين جميعا كانوا متشبعين بالإسلام الذي تنزل على محمد بن عبدالله - عليه

الصلاة والسلام - و كان كل ما كسبوه يعزى إلى الإسلام مباشرة دون وساطة أحد...

و نحن نأمل أن لا يسقط على الإسلام شئ يكثف جانباً على جانب كما أننا حريصون كل الحرص على أن لا ينفصل المسلمون عن أصول دينهم من كتاب و سنة، و نتذكر - و نذكر المسلمين جميعاً - بحديث الرهط الذين أرادوا تكثيف بعض الجوانب على حساب الأخرى، فقال لهم الرسول - في نهاية حديثه الشريف المعروف : "فمن رغب عن سنتي فليس مني".

لكننا - مع كل هذا - نرى أن الحوار هو السبيل لتوحيد فكر المسلمين و مناهجهم، و أن نضج العقل المسلم ضروري لتمحيص الأفكار و السلوكيات ، و نرى أن الرفض المسبق و المطلق مرفوض، و أن تجريح المسلم لمجرد انضوائه تحت شعار خاص أو طريقة خاصة عمل مرفوض كذلك ، لأن للمسلم المخطئ أجراً إذا كان مجتهداً و للمسلم المصيب أجرين.. فلا معنى للرفض بالجملة أو القبول بالجملة ، بل تعرض كل الأشياء و الأفكار - بتفصيل - على كتاب الله و سنة رسوله.

و نحن كما نؤمن بأهمية إحياء العقل المسلم ليبدع و يعمل و ينتج في عصر السباق العلمي - فإننا نؤمن أيضاً بأهمية إحياء (الجانب العاطفي في الإسلام) - حسب تعبير أستاذنا الإمام الشيخ محمد الغزالي - لكن يجب أن ينظر إليه على أنه (جانب

لا يجوز له أن يقضى على بقية الجوانب، بل على العكس فهو جانب "الشحن الروحي" الذي يجب - مع العقل - أن يحرك كل الجوانب ، و يدفع القطار الإسلامي إلى أن يمشى ، و إلى أن يمشى بسرعة مناسبة للعصر، و إلى أن يمشى - و هذا هو الأهم - على القضبان الصحيحة وصولاً إلى الغاية الإسلامية الكبرى.

هوامش الموضوع :

- ١ - رينولد نيكولسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ص ٣ ، طبعة القاهرة ١٩٥٦.
- ٢ - المرجع السابق ص ٤
- ٣ - راجع القشيري ص ١٧ و نفعات الأئس ص ٤٣ ، الجامعي، و تذكرة الأولياء ٣٢٩/١
- نقلا عن المرجع السابق، ص ٢٦.
- ٤ - نيكولسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ٧٧
- ٥ - المرجع السابق ص ٨٣.
- ٦ - نشره الدكتور محمد كمال جعفر بالقاهرة سنة ١٩٨١.
- ٧ - سهل التستري : التراث الصوفي ٩٣/٢ القاهرة ١٩٨٦
- بتحقيق محمد كمال جعفر.
- ٨ - من التراث الصوفي ١٣٥/٢

- ٩ - انظر الحلية ١٤٩/٢ نقلا عن الدكتور أبى اليزيد العجمي
(الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف
الإسلامي) رسالة دكتوراه بدار العلوم، ص ٣٤٥.
- ١٠ - ابن خلكان - وفیات الأعيان - ترجمة رقم ٥٠٤.
- ١١ - د/ أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية للجانب
الاجتماعي في التصوف الإسلامي ، رسالة دكتوراه،
ص ٢٥١.
- ١٢ - المرجع السابق، ص ٣٥٠.
- ١٣ - المرجع السابق، ص ٣٥٥.
- ١٤ - أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف
الإسلامي (رسالة دكتوراه بدار العلوم) ص ٣٥٠.
- ١٥ - د/ محمد السعيد جمال الدين - رسالة الخلود لإقبال - المقدمة -
وانظر د/ أبو اليزيد العجمي - مجلة المسلم
'المعاصر' الكويت عدد ٣٣ (دراسة عن الزهاد المسلمين).
- ١٦ - روائع إقبال ص ٢٥ و ما بعدها، ط. الكويت ١٩٧٨.
- ١٧ - المكان السابق
- ١٨ - د/ أبو اليزيد العجمي، "الزهاد المسلمون و مجالات العمل
الإسلامي".
- ١٩ - المرجع السابق
- ٢٠ - مذكرات الدعوة والداعية - دار الشهاب ١٩٦٦، و انظر
المرجع السابق.
- ٢١ - انظر في تاريخ المرابطين : قيام دولة المرابطين للدكتور حسن
أحمد محمود، و دولة بنى حماد للدكتور عبدالحليم عويس،

و في تاريخ المغرب من الأندلس للدكتور مختار العبادي
وغيرها.

٢٢ - أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب من الأندلس ص ٣٠٩ ،
طبع الإسكندرية.

٢٣ - انظر السنوسية: دين و دولة لمحمد فؤاد شكري، نشر مصر
١٩٤٨، و انظر أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية (رسالة
دكتوراه).

٢٤ - أحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب من الأندلس ص ٩٠.

إحياء الأخلاق الإسلامية

من واجبات الصحوة الإسلامية

الأخلاق : فطرة و تربية

الحديث عن الأخلاق حديث عن أساس من الأسس التي لا خلاف حولها ، بالنسبة لقيام الأمم و بقائها، و قيام الحضارات و ازدهارها.

و قد يستطيع مجتمع أن يعيش بدون أخلاق فترة من الوقت ، أو يعيش وفق أعراف و نظم و تقاليد تخلق من الأخلاق الزكية المنبعثة عن إيمان صحيح و عقيدة إيجابية ، لكن شأن هذا النوع من المجتمعات إلى شقاء و سقوط.

و دائما يرتبط بقاء الأمم بمدى تماسكها الأخلاقي الذي يعكس تماسكها النفسي و الفكري و شعورها الحي بالمسؤولية ، و التزامها بالواجبات الاجتماعية.

و لا مكان للأخلاق بدون عقيدة. و قد تؤدي العقيدة الباطلة الى نوع من السلوكيات و الأخلاقيات الجامدة التي تشبه الضوابط النفعية أو المصلحية.

بيد أن هذا النوع مؤهل للسقوط عند الامتحانات الحقيقية.
لكن الأخلاق النابعة من عقيدة صحيحة هي - وحدها - التي
يقوى أصحابها على عبور كل الامتحانات، و على الصمود في
وجه كل إغراءات الدنيا، و هؤلاء هم الذين قدموا النماذج
الحضارية الراقية، و أصبحوا أمثلة عليا، و صنعوا أمما و بنوا
حضارة...

إن الحقائق الأخلاقية حين تصبح تعبيرا عن إيمان حي صحيح
تسمو بصاحبها عن الأنانية و الذاتية المغرقة، و تفرض عليه
تبعات و سلوكيات قد تتناقض مع مصالحه الشخصية و رغباته
و أهوائه.

و إلى جانب هذا فإن الأخلاق المنبعثة عن عقيدة صحيحة
تتجاوز الأفكار الجامدة و المفاهيم المجردة التي لا حياة فيها،
و تقود صاحبها إلى التعرف على الضمير الأخلاقي الذي يعيش
فيه، و تدفعه إلى الترجمة العملية عن هذا الضمير، و لهذا فهو
يتعرف - أيضا - على صوت الحق المطلق.. "ويترجم في ثنايا
قلبه الرسالة السماوية لخالقه، و نجده خلف الفكرة يلمح حقيقة
حية و مؤثرة، و يشعر أنه مرتبط بها ارتباطا عضويا ، و يستمد
منها على الدوام القوة و النور، و يشعر نحوها بأعمق مشاعر
الاحترام ممزوجة بأرق مشاعر الحب. هذه الشعلة العاطفية التي
تحرك إيمانه العقلي، تغذى في الوقت نفسه "طاقاته الخلاقة".

و هو حين يتوقف أو يسقط لا ييأس. إنه سيعاود الوقوف على قدميه و متابعة المسيرة معتمدا على تلك القوة الهائلة التي يستمد منها العون. و بذلك يمكن القول إن الأخلاق لا تجد مكانا أكثر خصوبة ، تزدهر فيه، من ضمير المؤمن.^(١)

إن القيم الأخلاقية ستمتزج امتزاجا كاملا مع الأوامر و النواهي الشرعية ، و سيعملان معا على الوصول بالإنسان الى أعلى درجات الإنسانية ، و ذلك عن إيمان داخلي لا عن إرغام (قانوني) خارجي!! فالالتزام الخلقي المنبعث عن عقيدة يستبعد الخضوع المطلق مثلما يستبعد الحرية الفوضوية، و يضع الإنسان في موضعه الحقيقي بين المادة الصرفة و الروح الصرفة.^(٢)

إننا لا نريد في هذه الصفحات أن نقف طويلا عند القضايا الفلسفية التي تتصل بالأخلاق كعلم، فالجانب التربوي في بحثنا هو المحور و بيت القصيد.

لكن - من منطلق تحديد المصطلحات و التصورات فقط - نذكر أننا نقصد بالأخلاق ذلك الالتزام الأخلاقي الذي ينبثق في أعماق الفرد نتيجة التربية الإسلامية التي تجعل الإنسان المسلم يلتزم بالشرعية و بالقيم الأخلاقية ، ليس خضوعا للعقاب و الحدود الشرعية، و لكن مراقبة لله و حباً له و خوفاً من عقابه الأخروي، و رغبة في الثواب وفي الحياة الآخرة. و إذا كان علم

الأخلاق يتعلق موضوعه بالسلوك البشري فإن الإسلام لا يرضى بالسلوك المجرد ، بل يعطى أهمية خاصة للباعث (النية) والهدف. و لهذا فنحن نميل إلى ذلك التجديد الذى يحاول تعريف علم الأخلاق ملتزما بالرؤية الإسلامية ، فيرى أنه "علم يهتم بدراسة قواعد السلوك البشري و تطبيقاتها فى ظل أصول عقدية وغايات حددتها الشريعة، كما حددت ضوابط هذا السلوك، بما يجعل هذه الضوابط معايير عامة لا تختلف فى زمان أو مكان أو أشخاص" و هو بهذا علم معياري يجمع بين النظر والعمل و بين المثال و الواقع.(٣)

و الأخلاق - بهذا المفهوم الإسلامى - ذات صلة وثيقة بالتربية. بل إن التربية و التعليم هما أبرز وسيلتين لتحويل الأخلاق إلى سلوك تلقائي يصدر دون معاناة ... و يبرز عمق الصلة بين الأخلاق و التربية على أساس أن الوظيفة الأولى للمربي إنما هى العمل على ضرورة وعى الشخصية الإنسانية بالقيم الخلقية . و كلما زاد التزام المربي نفسه بالقيم الخلقية كان تأثيره الخلقى على الناشئة أقوى وأفضل، ذلك لأنه لا انفصال بين الأخلاق فى إطارها النظري و العملي ... كما أن هذا الارتباط بين النظر والعمل فى مجال الفعل الخلقى يجعل من القيمة الخلقية سلوكا للحياة و منهجا للتعامل البشري.(٤)

و تتضح العلاقة الوثيقة بين الأخلاق و التربية من خلال النقاط التالية :

- ١ - استخدام الأخلاق لأسلوب التأديب و التعويد عن طريق غرس العديد من المبادئ و القيم فى الشخصية الإنسانية ، و بذلك يستفيد علم التربية من هذه المبادئ و هو يخطط لتربية النشء فى مناهج نظرية و عملية.
- ٢ - تنطلق التربية فى اهتماماتها من اعتقاد أن الإنسان ذو جوانب و ملكات ، و لا بد من التخطيط لتنمية هذه الملكات، و وضع البرامج المختلفة لكل أنواع التربية البدنية و العقلية و الروحية و الصحية و النفسية .
- ٣ - يهتم علم التربية بضرورة التوافق بين الفرد و الجماعة، و هو نفسه يعمل كعلم الأخلاق، لأنه يعنى بتحديد المعايير التى يكون الفعل بها متوافقا بين الفرد و الجماعة.(٥)
- و هكذا نرى الأخلاق ذات امتداد طبعي يتجه الى الفطرة النقية التى خلقها الله نظيفة بريئة. فالأخلاق تتبع من هذا النبع الرباني العظيم: "فطرة الله التى فطر الناس عليها"....(٦) و فى الحديث الشريف: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"....(٧)

- و قبل أن يؤثر الأبوان و المنزل ، و أخلاق المجتمع ،
و روح الحضارة إعلاما و تربية و تعليما بعد أن يصل الفرد الى
سن تقبل هذه المؤثرات الحاسمة...

- قبل هذه المرحلة كان الفرد - بفطرته التي خلقه الله عليها -
وعاء نظيفا طاهرا... و من هنا فإن جزءا كبيرا من منهج
الإسلام فى التربية يتجه إلى هذه الفطرة من أجل إحيائها
و إعادتها إلى طبيعتها وإزالة ما تراكم عليها من مؤثرات
ضارة.. و عندما يتحقق هذا و يستطيع الإنسان الانسجام بعقله
و ثقافته مع فطرته التي تمثل رصيده الهائل العظيم و ملكته
الربانية - فإنه يستطيع بسلاح الفطرة ورصيدها العظيم،
و بسلاح التربية الإضافية السديدة، و بالثقافة و الوعي اللذين
غذى بهما فى الاتجاه الإيجابي البناء ... يستطيع بهذين
السلاحين المتكاملين: الأصلي الفطري و الثقافي و العقلي
الإضافي - الانتصار على كل قوى الشر الداخلية من غرائز
و أهواء ، و الخارجية من مؤثرات اجتماعية ، و فكرية ضارة.

- و الحق أن منهج الإسلام فى التربية و الأخلاق يمتاز بالجمع
بين هذين الرافدين العظيمين للالتزام الخلقي... و هو يرفض
الاتجاه العاجز الذى يعتمد على العامل العقلي و الثقافي وحده
دون تنقية الفطرة و تأهيلها لتقدم ملكتها العظيمة بدورها العظيم.

الشرع : المصدر الأعلى للالتزام الخلقي

و لقد كان "كانت" موفقا حين أكد أنه كشف عن مصدر الإلزام الخلقي و حدده في الملكة العليا في النفس الإنسانية، تلك التي توجد مستقلة عن الشهوة و عن العالم الخارجي معا. يقول كانت: "أيها الواجب ، أيها الاسم الأسمى الأعظم... أى مصدر جدير بك؟.... و أين نجد جذر ساقك النبيلة؟ لعله لا يكون - على الأقل - سوى ذلك الذى يرفع الإنسان فوق ذاته ... و الذى يشده الى نظام للأشياء ، لا يمكن لقوة أن تتصوره سوى قوة الإدراك".. فالإنسان بانتعائه في وقت واحد إلى عالم الإدراك ، و عالم الحس، ذو طبيعتين، تسيطر أشرفهما، و هى (العقل) على دنياهما، و هى (حب الذات غير المشروع). و هذا الصوت العقلي واضح تمام الوضوح، شديد التأثير، قابل لأن يدركه حتى السذج من الناس ... و الحدود التي تفصل الأخلاقية عن حب الذات مميزة بكثير من الوضوح والضبط، حتى إن النظرة العادية لا تعجز عن تمييز ما يتصف به أحدهما دون الآخر (٨) و يعلق على هذا النص الأستاذ محمد عبدالله دراز فيبين نقاط الالتقاء بينه و بين وجهة النظر الإسلامية المستخلصة من القرآن فيقول:

إذا ما رددنا نظرية (كانت) إلى أبسط تعبير عنها وخلصناها من جميع مظاهر الدقة الشكلية و نزعة التسمي و من نزعة التشاؤم، و من بعض ما شابها من البرود العاطفي فهي بعد هذا لا تعد من المسلمات فحسب، بل إنها لتتفق تماما - فيما نرى - مع النظرية المستخلصة من القرآن.

لقد علمنا هذا الكتاب أن النفس الإنسانية قد تلقت في تكوينها الأولي الإحساس بالخير وبالشر: "ونفس و ما سواها ، فألهمها فجورها و تقواها" (الشمس : ٧-٨). و كما وهب الإنسان ملكة اللغة، و الحواس الظاهرة فإنه زود أيضا ببصيرة أخلاقية: "بل الإنسان على نفسه بصيرة، و لو ألقى معاذيره". (القيامة : ١٤) حقا "إن النفس لأماراة بالسوء" (يوسف : ٥٣).. و لكن الإنسان قادر على أن يحكم أهواءه : "وأما من خاف مقام ربه، و نهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى" (النازعات : ٤٠).

و إذا لم يكن كل الناس يمارسون هذا التأثير على أنفسهم فإن منهم من يفعله بتوفيق الله له ، و هو ما قرره رسول الله صلى الله عليه و سلم - في قوله : "إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من نفسه ، يأمره و ينهاه" (٩). ففي الإنسان ، إذن ، قوة باطنة لا تقتصر على نصحه و هدايته و حسب بل إنها توجه إليه بالمعنى الصريح أوامر بأن يفعل أو لا يفعل (١٠). و الحق أن القرآن لم يقتصر على الملكات العقلية وحدها، فلقد عنى في

الوقت نفسه عناية كبيرة بإيقاظ أشرف مشاعرنا و أذكائها ، بيد أنه لم يحرك هذه المشاعر إلا تحت رقابة عقلنا، فهو يتوجه إلينا دائما، أعنى يتوجه الى ذلك الجانب المضيء من أنفسنا إلى ملكتنا القادرة على أن تفهم، و أن تقدر في كل شئ ما يضر و ما ينفع، و أن تقوم القيم المختلفة (١١). لكن الملكة الفطرية وحدها ليست كافية لكي تزودنا بالأخلاق المطلقة العامة. و لقد أبصر (كانت) الصخرة التي تصطدم بها الأخلاق القائمة على الضمير الفردي. و الواقع أنه من المستحيل عند بلوغ درجة معينة أن نسن قانونا يفرض باعتباره ضرورة على كل الضمائر، فلماذا أضحي باقتناعي من أجل اقتناعك؟

إن من الضروري ، إذن ، أن نلجأ إلى سلطة عليا لحسم الخلاف، و لن يكون الحل بكل تأكيد أن نعترف بهذه السلطة للمجتمع، إذا كان الأمر أمرا أخلاقيا لا أمرا شرعيا (١٢).
إن العقل - إذن - و مع كل ما تستطيع الفطرة أن تزوده به، و كذلك المجتمع ، كلاهما يستطيع أن يكون مصدرا محايدا و أميناً للإلزام الخلقى... فما المصدر إذن؟ إننا لابد أن نبحث مخلصين و أن نتوجه وجهة أخرى ، فأين نفتش عن ذلكم النور البديع لنهدى ضمائرنا، عندما لا تجد حيثما توجهت غير الظلام؟.... و أين نجد ذلك المخلص الذي تعلقت به أنفسنا و قد تقاذفتها الشكوك؟

ليس لدينا أمام هذه المسألة سوى إجابة واحدة تفرض نفسها ، إذ لا أحد يعرف جوهر النفس وشرعية سعادتها وكمالها مع الصلاحية الكاملة، و البصيرة النافذة - غير خالق وجودها ذاته: "ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير" (الملك : ١٤).

فمن ذلكم النور اللانهائي يجب أن أقتبس نوري ، و إلى ذلكم الضمير الأخلاقي المطلق يجب أن أتوجه لهداية ضميري: "و عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم، و عسى أن تحبوا شيئا و هو شر لكم، و الله يعلم و أنتم لا تعلمون" (البقرة: ٢١٦) (١٣) - إنه الشرع السماوي وحده ، لأنه صادر من العليم الخبير المحيط ، وهو المصدر الذى يستطيع أن يلزمنا الأخلاق، و نستطيع نحن - فى اطمئنان - الخضوع لأوامره.

- إن الروح الخلقى الذى يؤدى إلى تماسك المجتمع و ترابطه - أى الروح الخلقى من زاوية أثره الاجتماعى الذى يؤدى إلى الالتزام الحقيقى ، و ليس الأخلاق الفلسفية ، إنما هو منحة من السماء إلى الأرض يأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات الحققة.

و مهمته - أى الروح الخلقى - ربط الأفراد فى المجتمع بعضهم ببعض^(١٤) كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : "وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا

ألفت بين قلوبهم، و لكن الله ألف بينهم. إنه عزيز حكيم
(الأنفال: ٦٣).

- و هذه الروح الأخلاقية الإسلامية هي وحدها - و ليست أية أخلاق وضعية أو فلسفية أو قانونية - هي التي قدمت أروع النماذج الأخلاقية في التاريخ البشري، فهي التي خلقت من عناصر متفرقة كالأنصار و المهاجرين أول مجتمع إسلامي، حتى كان الرجل في المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن ينكحه من يختار من أزواجه بعد أن يطلقها له، كي يبني بذلك أسرة. (١٥) و مع كل ما تستطيع القوانين و الأخلاق الوضعية أن تقدمه لحماية المجتمع، فإن قدرتها على إحكام تماسك المجتمع قدرة محدودة و وقتية و رهن بمستوى ثقافي معين، و هي تقتضى جهدا هائلا حتى يصل - و لو من الناحية العملية فقط - إلى درجة معقولة من الانضباط، سواء كان هذا الانضباط راجعا إلى الالتزام المصلحي النفعي، أو إلى الإيمان بفكرة ما يعتقد صاحبها في سلامتها وجدواها....

و مع ذلك فهناك جرائم تجمع عليها البشرية - أخلاقيا - لكن القانون يحميها إذا كانت بالتراضى بين طرفيها ... و من هذه الجرائم الزنا و اللواط والقمار - مثلا - في المجتمعات الأوروبية و بعض المجتمعات المحسوبة على الإسلام...

و أيضا فإن المساحة التى تستطيع الدولة أن تراقبها و أن تضبطها مساحة قليلة بالنسبة لشبكة العلاقات الاجتماعية فى الحياة ... و ليس إلا الدين - و الإسلام هو الدين الحق - قادرا على إحكام الرقابة - فضلا عن توافر الباعث الكريم و الهدف السامى و الإحسان - و ذلك على امتداد النسيج الاجتماعى كله.

فإذا افترضنا أن الدولة بالقوانين الأرضية - تعاقب على الجرائم الخلقية حين تضبطها، فهى لن تستطيع أن ترى كل جريمة، و لا أن تتعقب كل مجرم. و سيفلت منها كثير من الجرائم بلا إثبات و لا عقاب. و إنما يحتاج الامتناع عن الجريمة الخلقية الى الارتباط بالله. و ذلك وحده هو الضمان.... فالارتباط بالله هو الذى يهذب النفس فلا تندفع وراء الجريمة.

و هو الذى يقيم أهدافا أعلى من أهداف الأرض تستنفد الطاقة الجسدية و النفسية الفائضة فتصرفها عن عالم الشهوات.

و هو الذى يقيم فى داخل النفس حسيا يراقب كل عمل لا تصل إليه يد القانون و لا تبصره عين الدولة.

و هو الذى يعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة التى يتركها فى الأرض أملا فى النعيم الدائم من السماء.

و هو الذى يحدث فى نهاية الأمر رهبة من الجريمة أقوى من رهبة الدولة و القانون.

و بهذه العوامل كلها مجتمعة و ممتزجة فى العقيدة، يمتع الناس عن ارتكاب الجريمة. فإذا أضيف الى ذلك أن تكون القيود التى تفرضها العقيدة معقولة فى ذاتها لا تحرم الا المتاع الزائد عن الحد، فقد استوت لها (العدالة) مع (القدرة على التهذيب) (١٦). و ذلك ما يتحقق فى العقيدة الإسلامية التى تعترف بالغرائز الموجهة. و بالنالى فالأخلاق الراقية و الشاملة و الصادقة و التى تليق بإنسانية الإنسان ، و الكفيلة بحماية الحياة و الحضارة و بازدهارها هى وحدها الأخلاق الإسلامية.

إن الإسلام يتعامل مع الإنسان الواقعي الطبيعي، لكنه يهدف الى ترقيته بالأخلاق و يلبي حاجاته، فى الوقت نفسه - دون تفريط أو إفراط. و نظرا لقصور العقل عن إدراك كل جوانب الحياة و الكون دفع الإسلام الإنسان إلى اللجوء إلى الوحي (النصوص)، و لأن النصوص لا تفهم إلا بالعقل دفع العقل إلى الاجتهاد ، و من ثم ربي حسه عن طريق المران، و عمق جانب الخيرية فيه، منميا الجانب الفطري فى حسه و وجدانه لتجىء سلوكه نتاجا لهدى النص و فهم العقل و حدس الوجدان المهتدى، و كل ذلك ليجعل المجموع من الناس على طريق الالتزام الخلقي الذى يوائم بين طبيعة الفرد و بين المجتمع. (١٧)

خصائص التكليف الخلقي في الإسلام

إلى جانب عنصر "الربانية" الأساسي في عملية التكليف الأخلاقي، على أساس أنه ضمان للبائع والهدف و الشمول والاستمرار، ثمة خصائص لا يعد التكليف الأخلاقي ذا فاعلية أصيلة و حقيقية - في المستوى الإنساني و الحضاري - إلا بها.... و من أبرز خصائص التكليف الأخلاقي أنه تكليف (عام) فهو كل قانون مادي أو اجتماعي أو منطقي يحكم بالضرورة جميع الخاضعين له، على نسق واحد كما يحكم الفرد الواحد في مختلف ظروفه. و إلا فلن يكون القانون قانونا، أعنى قاعدة عامة ثابتة. و يتجلى طابع الشمول في القانون الأخلاقي في القرآن بوضوح لا ريبه معه، ذلك لأن مجموع أوامره يتوجه في جملة إلى الإنسانية جمعاء، و هو ما يقرره قوله تعالى: "قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا" (الأعراف : ١٥٨) و قوله : "لأنذركم به و من بلغ" (الأنعام : ١٩) و قوله : "ليكون للعالمين نذيرا" (الفرقان : ١) وقوله : "أأمرون الناس بالبر و تنهون أنفسكم" (البقرة : ١٤).

و لعل من نافلة القول أن تؤكد فكرة (الإمكان المادي) للعمل كشرط لا معدى عنه في الإلزام الأخلاقي. فليس الضمير العام هو الذي يعترف وحده بتلك الحقيقة البديهية القائلة بأنه لا يطلب

الطيران من النوق، و لكن ذلك هو بذاته ما ورد في كثير من النصوص القرآنية، مثل قوله تعالى : "لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها" (الطلاق : ٧) و قوله : "لا نكلف نفسا إلا وسعها" (الأنعام: ١٥٢). و قوله : "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" (البقرة : ٢٨٦). (١٨)

و من الناحية العملية اتسم المنهج الأخلاقي الإسلامي باليسر في الأوامر و التشريع، و لقد أدركت عائشة - رضى الله عنها - هذا المعنى ، فيما رواه البخاري قالت : حتى إذا ثاب الناس الى الإسلام، نزل الحلال و الحرام ... و لو نزل أول شيء : "لا تشربوا الخمر" ، لقالوا : "لا ندع الخمر أبدا". (١٩)

و أكد عمر الثاني - عمر بن عبد العزيز - بدوره أهمية المنهج في المجال السياسي، ففيما يحكى عنه أن ابنه عبد الملك قال له: "ما لك لا تنفذ الأمور ، فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بى و بك في الحق؟" فقال له عمر: "لا تعجل يا بنى ، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين ، و حرمها في الثالثة، و إنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة ، فيدفعوه جملة ، و يكون من ذا فتنة". (٢٠)

و هكذا نجد أن الإلزام الأخلاقي قد جاء في القرآن مشروطا بأمرين:

أولهما : أن النشاط الذى يستهدفه يجب أن يكون يسيرا على الطبيعة الإنسانية بعامة أى "خاضعا لإرادة الإنسان".

و ثانيهما: أن يكون هذا النشاط ميسرا فى واقع الحياة المحسوسة، أى يمكن ممارسته وغير استبدادى^(٢١).

و لعل حرص الإسلام على حث المسلم على (عدم اليأس من رحمة الله) و على التوبة من أقوى الأدلة على تقدير الإسلام للطبيعة البشرية ، و على فتحه النوافذ الرحيمة - باستمرار - كى يبقى الإنسان فى مستوى القدرة على العودة إلى الطريق القويم و الارتفاع إلى مستوى الأخلاق الإسلامية، وعدم الاستمرار فى الهبوط الى الأخلاق الحيوانية.

لكن التوبة فى الإسلام توبة إيجابية ، فهى تقتضى تصحيح المسار و لا سيما فيما يتصل بحقوق الناس... إنها ليست مجرد "اعتراف" يستريح به الضمير، بل هى حركة فى اتجاه المستقبل لتصحيح الماضى والحاضر و تعمير بناء الإنسان من جديد.....

و لهذا كانت التوبة الصحيحة هى التوبة النصوح ... و أول دليل على التوبة النصوح هو الواجب الآتى المعجل ، الذى بدونه تصبح فكرة التوبة متناقضة. هذا الواجب ينحصر فى العدول السريع عن الذنب ، فإذا كان الخطأ فى واجب أهمل ، و ما زال الأمر به قائما فإن الإصلاح ينبغى أن يتمثل فى قضاء حقيقي، ذى طابع أخلاقي ، فالعمل الناقص يجب أن يعاد، و يؤدى

بطريقة مناسبة، آجلاً أو عاجلاً . و إذا كان مستحيلاً أن نبطل الخطأ في ذاته، فمن الممكن أن نمحو آثاره ، بسأداء أفعال ذات طبيعة مناقضة. و ما هو القرآن يعلمنا أن : "الحسنات يذهبن السيئات" (هود : ١١٤) و الرسول عليه الصلاة و السلام يقول: من كانت له مظلمة لأحد، من عرضه أو شيء ، فليتخلله منه اليوم، قبل ألا يكون دينار و لا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، و إن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" (٣٢).

و لم تقم العلاقة بين الإنسان و الأخلاق - في الإسلام - على الإلزام الإجباري أو الاختياري فقط، بل قامت على ما هو أهم من ذلك و هو "الحب" في الله، و الرغبة في إرضاء الله ، بسأداء الأمر، وبالإحسان فيه، أي إتقانه و مراقبة الله فيه... و من المضطرب في القرآن أن تأتي الأوامر و النواهي في سياق الحب من الله و عدم الحب من الله ... ففي الأمر بالإحسان لا يأتي الأمر مجرداً، و إنما يأتي:

- "و أحسنوا إن الله يحب المحسنين" (البقرة : ١٩٠)
- "و الكاظمين الغيظ و العافين عن الناس و الله يحب المحسنين" (آل عمران : ١٣٤)
- "و أما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم و الله لا يحب الظالمين" (آل عمران : ٥٧).

- "فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين" (الشورى : ٤٠).
- وفي الحديث على التقوى يرد التعبير القرآني في سياق الحب :
- "بلى من أوفى بعهده و أتقى فإن الله يحب المتقين" (آل عمران : ٧٦).
- "فأتوموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين (التوبة : ٤).
- وفي الحديث على التوكل يقول الله تعالى في القرآن: "إذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين" (آل عمران : ١٥٩).
- وفي الحديث على الصبر : "و ما ضعفوا و ما استكانوا و الله يحب الصابرين" (آل عمران : ١٤٦).
- وفي النهي عن الفخر و الكبر : "إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا" (النساء : ٣٦).
- وفي النهي عن الخيانة : "إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما" (النساء : ١٠٧).
- "إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور" (الحج : ٣٨).

- و فى النهى عن الفساد يقول الله تعالى: "والله لا يحب الفساد" (البقرة : ٢٠٥).

"و يسعون فى الأرض فسادا و الله لا يحب المفسدين" (المائدة : ٦٤).

- و فى الأمر بالتوبة يأتى التعبير القرآني: "إن الله يحب التوابين و يحب المتطهرين" (البقرة : ٢٢٢)

- "فيه رجال يحبون أن يتطهروا و الله يحب المطهرين" (التوبة : ١٠٨)

- و فى النهى عن الاعتداء: "و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" (البقرة : ١٩٠)

- "ادعوا ربكم تضرعا و خفية إنه لا يحب المعتدين" (الأعراف : ٥٥)

و هذا الأسلوب فى الأوامر و النواهي الأخلاقية خصيصة أخرى تسمو بالأخلاق إلى أرفع المراتب، و تجعلها فوق العائق القانونية و المنفعية والشخصية... إنها (علاقة حب) بالله... و من هذه العلاقة السامية ترشح الأخلاق بأزكى آيات السمو، و تصل إلى أعلى مستوى أخلاقي يستطيع الإنسان أن يصل إليه.

و للفضائل الخلقية فى الإسلام شروط أساسية أخرى أهمها توافر عنصر النية الصالحة القاصدة للفعل. ومن الوجهة الأخلاقية

الإسلامية لا قيمة للفضائل - بالنسبة لاستحقاقها ثواب الله و رضاه - ما لم تكن مصحوبة بنية صالحة. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما الأعمال بالنيات ، و لكن امرئ ما نوى" (٢٣) فثمة تأكيد واضح في الإسلام على أن موقف الإنسان الباطن أو نيته هو شرط القيمة و الفضل ، كما أنه شرط الإدانة و العقاب.

و هذا الشرط أيضا يميز الفضيلة عن العمل المشروع : "قدافع الضرائب يقوم بعمل مشروع مهما كانت نيته ، إذا دفع ما عليه من ضرائب ، لكن مؤتى الزكاة لا يكون فاضلا و لا يكون لذكاته قيمة إلا إذا آتاها بنية طاعة الله عز و جل . و الكرم لا يكون فضيلة إذا كانت النية من ورائه كسب إعجاب الناس و محمديهم . و الرجل الذى يظا زوجته ظانا أنها امرأة غريبة هو زان فى حكم الأخلاق. و لكنه قام بعمل مشروع فى نظر القانون، و لا يقام عليه حد الزنا. فالنية شرط جوهري للخلقية، ولكنها ليست شرطا للمشروعية... و كما أن العمل الصالح بدون نية أو بنية سيئة لا قيمة له فكذلك العمل الفاسد إذا وجدت النية الحسنة لا إثم عليه". (٢٤)

و القرآن الكريم يؤكد أهمية العمل القائم على الإخلاص القلبى و النية الحسنة فيقول : "يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" (الشعراء : ٨٨-٨٩).

و معنى ذلك أنه إذا لم يتوافر الإخلاص لله فى القلب لم تثمر الطاعات الظاهرة على اختلافها القرب إلى الله جل جلاله، و إذا لم تنهذب النفس بالأخلاق الفاضلة التى أمر الله المسلم بأن ينسج منها ثوبا سابغا خفيا لها، لم يغنها أى غناء ما قد تلبسه على مرأى من الناس من ثوب الصلاح و التعبد و التقوى.

و فى الوقت نفسه - حسب المفهوم الواضح - فإن القلب الذى سيطرت عليه نوازع الكبر أو الضغائن و الأحقاد أعجز من أن يمد الطاعات و العبادات الظاهرة بشريان العبودية لله تعالى، و إذا انقطعت روافد العبودية مما بين قلب المسلم و ظاهر طاعته، لم تعد فيها أى قدرة على تقريب صاحبها إلى الله جل جلاله ، و لم يبق فيها أى وقاية تحجزه عن مطارح الدنيا و منزلقات الشياطين و الأهواء. (٢٥)

و كما أنه من الضروري أن يتوافر فى التكليف الخلقى للإسلام اليسر و القدرة على الفعل و القيام بالعمل عن حب و رغبة و نية مخلصه صادقة ، كذلك يجب أن يصدر الأمر عن إرادة حرة لا عن قهر و جبر ... كما أنه من الواجب أن يكون ممتدا لكل الآخرين و ليس محصورا فى أهل أو قريب أو أصحاب علاقة خاصة أو مرتبطا بمصلحة متبادلة.

و من البديهي أن رحمة المرء بنفسه و بأهله و بماله عمل طيب، و هى أوجب من رحمته بالغرباء لكن قيمتها الخلقية باهتة ، ذلك

لأن الغيرية فيها فيزيائية شكلية ، أعنى أن الأهل (غير) فيزيائيا
و جسديا فقط لكنهم وجدائيا و اجتماعيا ليسوا (غيرا) بالمعنى
الحق للكلمة.

فالفضيلة الخلقية إذن مشروطة بالغيرية - أى باتجاه الفعل إلى
تحقيق خير الآخرين ممن ليسوا من الأهل.
و فى هذا الشرط تتناقض الأخلاق الإسلامية الأخلاق النفعية
الأوربية الحديثة و المعاصرة التى اعتبرت الغيرية قاعدة
مشنومة.

إن الفعل الإنسانى قد يتجه الى الله ، فيكون عبادة بحتة، كرمى
الجمار. و قد يستهدف منفعة صاحبه الخاصة، كالعمل
و التجارة، و قد يستهدف خيرا لآخرين ، تقربا إلى الله ،
كالرحمة و العفو و الصدق . و هذه هى الفضيلة الخلقية.(٢٦)

أثر التربية الأخلاقية الإسلامية

فى بناء الفرد

اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بعلاقة الفرد بالمجتمع ، و قد شبه
الإسلام المجتمع بالجسد الواحد ، كما أنه دعا الأفراد إلى
الارتباط الوثيق بالجماعة و العمل للمصلحة العامة، فقد ورد فى
الحديث الشريف: "من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة

الإسلام من عنقه .. فقالوا : يا رسول الله أرأيت إن كان علينا
أمراء يمنعون حقنا و يسألون حقهم؟ فقال: اسمعوا و أطيعوا ،
فإنما عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم". (٢٧)

و هذا الأمر الجازم بالطاعة فى هذه الحالة إنما يهدف الإسلام
منه إلى الحفاظ على الجماعة و إبعادها - ما أمكن - عن
التمزق. و قد كانت نظرة الإسلام فى ربط الفرد بالجماعة ،
و فى دفع الفرد الى العمل من أجل المصلحة العامة أكثر دقة
و شمولاً من كل النظريات و الأديان . و لهذا لم تظهر فى
التاريخ أخوة مترابطة مؤثرة على نفسها مثل أخوة الأنصار
و المهاجرين !!!

و كان من أثر هذه التربية الأخلاقية الاجتماعية للفرد المسلم أن
تميز المجتمع الإسلامى بروح الحب و الخير و الأمر بالمعروف
و النهى عن المنكر و الأخوة الإنسانية التى لا تفرق فى المعاملة
و لا فى القضاء و الحكم بين غنى و فقير، و أسود و أبيض
و حاكم و محكوم ، فكلهم سواسية فى الإنسانية، وفى العبودية
لله الواحد الأحد، و إنما الأفضلية الوحيدة عن طريق التربية
الأخلاقية الاجتماعية غير المباشرة : "يا أيها الناس إنا خلقناكم
من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا. إن أكرمكم
عند الله أتقاكم" (الحجرات: ١٣) ، و قوله تعالى: "لا يسخر قوم
من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم" (الحجرات : ١٢) .

كما تسود في هذا المجتمع الوحدة في داخل الأفراد بين ميولهم ،
و الوحدة بين عقيدة الأفراد ، لأنهم يؤمنون بإله واحد و يتجهون
إليه كلية، ثم يسيرون في اتجاه واحد و في طريق واحد .
و الوحدة عن طريق الوعي الكامل بترابط المصالح المادية
و المعنوية و الاجتماعية و الإنسانية لدرجة أن كل فرد في
المجتمع ينظر إلى نفسه على أنه عضو متصل بجسم المجتمع،
كما ينظر المجتمع إلى كل فرد من أفرادهِ على أنه عضو متصل
بجسده، و من ثم ينظر الفرد إلى أن حياته مرهونة بحياة
الجماعة (٢٨). و نتيجة إيمان الفرد المسلم بأن النظام الاجتماعي
الذي يخضع له إنما صدر عن الله سبحانه و تعالى و ليس عن
هيئة ذات مصلحة خاصة أو ميول خاصة فإنه يتعلق بهذا النظام،
و يتعبد بالالتزام به و الخضوع له، و من ثم تسود كل فرد من
أفراد المجتمع روح التعلق بالجماعة و عدم القيام بأي عمل من
شأنه أن يضر بالمجتمع ، بل إنه ليبذل نفسه أو ماله من أجله إن
اقتضت الضرورة ذلك....(٢٩) قال تعالى في القرآن الكريم :
"ويطعمون الطعام على حبه مسكينا و يتيما و أسيرا . إنما
نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكورا" (سورة
الإنسان / الدهر : ٩). إن الالتزام الأخلاقي - عند ما يغرس في
الفرد - من شأنه تكوين روح الخير في الفرد فيأتي سلوكه

إسلاميا بطريقة تلقائية، و يأتي نفوره من الانحراف و أهله
بطريقة عفوية أيضا.

كما أن هذه التربية الإسلامية الأخلاقية - وهي أهم ما حرص
الرسول عليه على أساس العقيدة في مكة - من شأنها إيجاد
شعور بالمسئولية نحو الإنسانية كلها ، و إيجاد موقف مبدئي ضد
الشر و أهله في إطار الإمكان البشري، و في ظل هذه التربية لن
يوجد مسلم يدعى أنه إذا سلك سلوكا غير أخلاقي إنما يضر
نفسه فقط، إذ ليس هناك سلوك أخلاقي يقتصر ضرره على
الفاعل فحسب، حتى تلك الأفعال التي يدعى أنها يقتصر ضررها
على الذات الفاعلة إذا كان ذلك ضارا. و لنضرب لذلك مثلا
بالرجل السكير... فالسكير لا يستطيع الاحتجاج بأنه يحقق لنفسه
ضربا من المنفعة و أنه لا يضر بذلك أحدا لكن إذا علمنا أضرار
المسكرات و ما ينتج عنها من الأمراض العصبية و العقلية
و غيرها، و كيف أنها تؤثر على ذرية السكير، ثم تكون سببا
للحوادث ، و سببا لارتكاب الجرائم.. عندئذ نعلم أن عمله هذا
ضار على نفسه و على ذريته و على المجتمع أيضا.

و لهذا كان الرسول عليه السلام دقيقا عندما شبه المجتمع بجسم
واحد فقال : "مثل المؤمنين في توادهم و تراحمهم كمثل الجسد
الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر

و الحمى" [رواه مسلم]، و شبهه مرة أخرى بالبناء فقال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" [رواه مسلم].

و قد أحاط الإسلام الفرد المسلم بسياج من الأخلاق يمتد إلى سائر شئون الحياة بحيث يصح لنا أن نقول: إنه مع كل أمر شرعي يوجد أمر أخلاقي يعطيه المعنى الإنساني الذي يرتفع به عن مستوى التكليف البحت، و يشيع في جوانبه الحب و الإحسان و الإخلاص... و حتى العبادات الإسلامية التي تمثل أبجديات الإسلام من صلاة و زكاة و صيام و حج ، فإن لها أخلاقها و آدابها التي ترتفع بها عن مجرد الأداء القانوني ، و توفر للعبادة و للسلوك عنصرى الضمير و الروح .

و ثمة كتب كثيرة - مجملّة و مفصلة - تتبعت أدب المسلم و أخلاقه في شتى أعمال اليوم و الليلة، و في سائر المعاملات مع الآخرين.... و قد تحدثت هذه الكتب عن أدب المسلم مع الله تعالى ، و مع المسجد ، و مع الناس حين يستأذن في دخول بيوتهم، و في السلام عليهم و في مجالستهم، و في ضيافته لهم أو ضيافتهم له ، و في حديثه معهم في اللقاءات العادية المعيشية، أو في لقاءات العلم و التلاوة و الذكر و الفقه، و في المزاح و الطعام و الشراب و السفر و زيارة المريض و تشييع جنازة الميت ، و قيادة السيارة ، و المشى أو الجلوس في الطريق،

و آداب الزفاف و الزواج و العلاقة مع الزوجة أو مع الأولاد أو
الآباء ، أو مع الجيران... .

فى كل هذه المساحة - و فى غيرها - يحيط الإسلام المسلم
بسياج من الأوامر الشرعية و الآداب الخلقية... فالشرع عمود
الإيمان ، و الأخلاق عمود الإحسان... و بين هذين الشاطئين
يتحرك المسلم مزودا بالعقيدة الصحيحة التى تكفل له السعادة
و النجاة.

و من مجموع الأفراد المسلمين الملتزمين بالشرعية و الأخلاق ،
و المؤمنين بعقيدة صحيحة يتكون المجتمع الأخلاقي الصالح
القادر على إنجاز الحضارة الصالحة اللاتقة بإنسانية الإنسان .

أثر الأخلاق الإسلامية

فى بناء المجتمع

يشكل الأفراد المواد التى يبنى بها المجتمع عبر نسيج من
العلاقات التى تحتفظ للفرد بذاته و كيانه، و تجعله - فى الوقت
نفسه - عضوا متألقا منسجما مع بقية أعضاء المجتمع.
و لا يستطيع مجتمع معين أن يؤدي وظيفته التاريخية و نشاطه
المشترك دون أن توجد فيه شبكة العلاقات التى تؤلف عناصره
النفسية و الزمنية.

و كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي و الدستور الجمالي الخاص بالمجتمع، و بالتالي تعتبر القيمة الخلقية عنصرا جوهريا في النشاط المشترك الذي يتم بفضل وجود شبكة العلاقات الاجتماعية (٣٠) التي تمثل صمام الأمان و الروح الماسكة لكيان المجتمع، و كلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه. (٣١)

و لا يوجد في المجتمع نشاط عام أو خاص لا تسنده و تركيه الأخلاق، و عندما قامت الرأسمالية على أساس غير أخلاقي، فإنها ولدت الاستعمار الحديث الذي ذاقت البشرية من هوله الكثير، و كان أشأم مولود لها هو المادية الجدلية البغيضة، و مع انحسار موجة الإلحاد "العلمي" في العالم، و وصول المرض الشيوعي إلى أقصى ما يستطيعه .. سقطت الشيوعية.... و لكن الجسم الرأسمالي ما زال في حاجة إلى الروح و الأخلاق!! و أمام عجز المسلمين المشين عن تقديم نموذج المجتمع الأخلاقي الذي يملك زمام أمره و يعيش على إنتاجه، و يوازن بين الأخذ و العطاء و المادة و الروح و الواجبات و الحقوق ... و أمام هذا العجز انحسرت الأخلاق في المجتمعات الحديثة ، و أصبحت شبكة العلاقات مجرد نسيج يحكم القانون و المنفعة المتبادلة.

و كيف تصعد البشرية الى المستوى الأخلاقي الذى يسمو على المستوى القانوني و هى لا تجد من يدفعها ، بل تجد المسلمين قد سقطوا فى هاوية تضييع القانون السماوي و الأخلاقي أيضا، و قدموا نموذجا اجتماعيا رديئا، و تجد أحوالها فى ظل انحلالها الأخلاقي الأوروبي أفضل تنظيما و إبداعا من هؤلاء المسلمين الذين قال رسولهم (عليه الصلاة و السلام) : "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا" (٣٢) و وصفه الله بقوله : "و إنك لعلى خلق عظيم" (القلم : ٤).

و الإنسان - بطبيعته - مجبول على السهولة و اتباع المنحدر إذا لم تكن وراءه قوة دافعة إلى أعلى « فلا اقتحم العقبة » (سورة البلد : ١١) ... إنها قوة من عقيدة و أخلاق تحفز لهذا الاقتحام الذى قد يعنى التضحية بالمال أو بالنفس أو بهما معا.

إن الحضارة الأوروبية قد تقدمت اعتمادا على القانون، و قد ظلت تحقق تقدما فى مجالات التقدم المادي و التنظيمي ، مثلما يتقدم صاروخ انفصل عن مدار توجيهه ، و هو فى تقدمه مندفع لا يبصر ذاته...

و علم القانون الغربي لا يعدو أن يكون إفرازا للظواهر الاجتماعية، فهو محصلة جمع الوقائع الاجتماعية مصاغة فى بنود قانونية ، و هو يعالج سلوك الأفراد و الجماعات إزاء نظام

من القواعد خلفته ضرورات الوجود، و كأن الرعية موافقة عليه، و غالبا ما يحافظ عليه بمجموعة من الإجراءات القهرية. أما قاعدة السلوك عند المسلم فهي على العكس من ذلك ، إنها الإرادة الإلهية المعبر عنها في القرآن والتي تفسرها رسالة محمد النبوية.

و هنا تبرز الحاجة إلى ملاحظتين :

الأولى : أن تنظيمات الإسلام الشرعية "المحددة و غير القابلة للنقاش بالتأكيد" تتعدى بشكل واسع وضعية المعتقد الضيقة لأنها تبدو مفتوحة و منسجمة بمشاعر الإخاء و العدالة.

و الملاحظة الثانية : أن الوحي كان بلا ريب الأساس الأولي بين الأفراد و العلاقات بين الزمر الاجتماعية، و لا تميز فسي العقيدة الإسلامية بين الموجب القانوني و الواجب الخلقي، و هذا الجمع المحكم بين القانون و الخلق يؤكد قوة النظام منذ البدايات (٣٣) و يحصن المجتمع - عند التطبيق - تحصينا كاملا في المستوى الذي يطيقه البشر!

و لئن كانت الأخلاق مطلقة و ثابتة و لا تختلف من دين لدين إلا في بعض وسائل التضييق، بحيث إننا نجد الوصايا العشر مكررة و معروفة في الأديان كلها.. لكن القرآن أضاف - على صعيد الفضائل الفردية - مجموعة حقيقية من قواعد الأخلاق و الآداب شكلت الحضارة الإسلامية و طبعتها بطابعها. فالتهذيب

و التربية الصالحة و العادات الحميدة و الصدق و الإخلاص هي أسس الألفة التي كان لابد من أن تحيل جماعة المؤمنين إلى أخوة عريضة. و واجب الفرد في هذا المنظور سابق على حقه، و إقامة مجتمع عادل و شريف من صلب التعاليم الإسلامية. و في المجتمع الإسلامي تصبح الفضيلة الاجتماعية الأساسية، و هي قاعدة السلوك الأخلاقي للمسلم، جماعية أكثر مما هي بين فرد و آخر، و هذه - لعمري - خصيصة النظام الإسلامي الجوهرية. فالقرآن والسنة و الفقه تلح كلها على ضرورة تدعيم الروابط التي تشد أفراد المجتمع بعضهم إلى بعض وتوثيقها. و من المناسب في هذا الصدد أن نحسب حساباً حقيقياً للتمييز الذي يقيمه الإسلام بين (الإنسان كإنسان) و (الإنسان الجماعي)، و أن نحفظ مع ذلك في أذهاننا بأنه إذا كان في الإسلام فصل واضح بين الإنسان كإنسان و بين الإنسان الجماعي ، فإن ذلك لا يقلل من عمق تماسك هاتين الحقيقتين ، نظراً لأن الجماعة مظهر من مظاهر الإنسان، و أن المجتمع - على العكس من ذلك - عبارة عن أفراد متعددين، و ينتج عن هذا الترابط أو التقابل - أن كل ما يتم لمصلحة الجماعة... ذو قيمة روحية بالنسبة إلى الفرد و بالعكس.

و ثمة ميزة أساسية بالنسبة لعلاقة المجتمع الإسلامي بأخلاق الإسلام : فمن الجلي أنه لما كان بين يدي المسلم تنزيل كامل

عليه أن يتعلم منه، فإنه سوف يحاول أن يحسن مسلكه الخلقي لا بالبحث عن حقائق جديدة، وإنما عن طريق التأمل في الإسلام، والالتزام وقت الممارسة بالفضائل التقليدية ومحاكاة الأفاضل ممن سبقوه أو من الذين يعيش إلى جانبهم، و تمثل الصلوة بحياة النبي و صحابته شاهدا خاصا في هذا الصدد.

و المؤمن ملتزم في حياته الخلقية بالتقيد بوصايا الشريعة الإلهية. وليس هذا التقيد مجرد عمل يصدر منه بشكل آلي... إن عليه بالعكس أن يشعر أنه ملتزم به التزاما عميقا، إذ ينبغي في الواقع ألا يكتفى بصنع المعروف ، بل أن يأمر كذلك به، و ألا يكتفى بأن يتجنب المنكر ، بل أن ينهى عنه أيضا. و هذا المظهر لامتياز يكسب المجتمع الإسلامي - حتى في هذه الأيام - تلك خلفية من التقليد و المحافظة.(٣٤)

و مع ذلك يقدم الإسلام، بوصفه نظاما لحسن المخالطة و المعاشرة ، أكثر من خلق اجتماعي بالمعنى الدقيق. إن الإسلام من حيث جوهره بالذات، و من حيث منطق نظامه ، قد بدأ فور ظهوره دين المساواة من خلال الصورة التي قدمها عن الله و الكون و الإنسان . فلقد وضعت التعاليم القرآنية حدا للطبقة الاجتماعية (المتصارعة) حين جعلت آدم أصلا لجميع الناس، و الفضل الوحيد المحتمل للفرد على غيره يكمن في تبصره و تمييزه ، أي في تقواه.

و بما أن الإسلام قد بنى المجتمع على قاعدة العدالة و النصفة ، فإنه قد هدف على الصعيد الاقتصادي إلى استئصال الفقر من جذوره. و هو يطالب بـ (الكفاية) لكل مسلم ، بغية إشباع حاجات الفرد اليومية الأساسية.(٣٥)

و قد قدم المجتمع الإسلامي عبر التاريخ صوراً رائعة من المساواة و استئصال الفقر و مساهمة الأغنياء فى المجتمع طوعية بأضعاف ما يطلب منهم الشرع.

كما قدم هذا المجتمع عن طريق الأخلاق و تطبيق الحدود الشرعية صورة من الأمن الذى يعتبر الشرط للضروري لنمو الحياة الاجتماعية و ازدهارها.

و بعض الناس الذين لا يفهمون أسرار التشريع الإسلامى يزعمون أن فى الحدود قسوة، لكنهم يتجاهلون أن الحدود وقائية و زجرية و أنها - مع الأخلاق و العقيدة - صمام الأمان لسلامة المجتمع و الحضارة ، و أن مجتمعا لا أمن فيه لا يمكن أن يكون مجتمعا إنسانيا مؤهلا للتحضر و الرقى... يقول ابن خلدون (٣٦) : "اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها و اكتسابها ، لما يرون حينئذ من أن غايتها و مصيرها انتهاءها من أيديهم . و على قدر الاعتداء و نسبته يكون انقباض الرعية عن السعى فى الاكتساب . و العمران و وفوره و نفاق أسواقه إنما هو بالأعمال ... فإذا قعد الناس عن

المعاش .. كسد العمران و انقضت الأحوال ، و ابذعر الناس في
الآفاق في طلب الرزق فخف ساكن القطسر، و خلت دياره
و خربت أمصاره، و اختل باختلاله حال الدولة".

و كما يحدث التطبيق العملي للأخلاق الإسلامية الانسجام مع
أوامر الله ، و ذبوع مشاعر الأمن و الإخاء و العدالة ، و إذابة
الحدود بين القوانين في صورتها المادية الجافة و بين الأخلاق
في إطارها الروحي السامي ، كذلك تحدث الأخلاق الإسلامية في
المجتمع الانسجام مع الفطرة الإنسانية، و مع السنن الاجتماعية
و الكونية التي وضعها الله لمسيرة المجتمعات و الكون... و في
ظل هذا تقف الأخلاق الإسلامية - وحدها - الأخلاق الأقدر
على إحكام نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية ، بحيث تصبح
فاعليتها أقوى من كل النوازع الفردية التي تمزق نسيج المجتمع.
و من هذه السنن الأخلاقية الإسلامية ما هو (عام) يؤصل الخير
بجمع أنواعه و البر بكل ألوانه. و من القوانين الأخلاقية ما هو
(خاص) بخلق معين أو بفضيلة محددة، (٣٧)

فمن السنن الأخلاقية العامة نجد - على سبيل المثال - تلك
القواعد الأخلاقية العامة :

- "قل لا يستوى الخبيث و الطيب و لو أعجبك
كثرة الخبيث" (المائدة : ١٠٠)

- "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الرعد : ١١)
- "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا، لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون" (الأعراف : ٩٦)
- "ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله" (الفاطر : ٤٣)
- و من السنن الأخلاقية الخاصة (حول الرحمة) نجد النصوص التالية:

- "من لا يرحم لا يرحم" (٣٨)
- "إنما تنصر هذه الأمة بضعفائها ، بدعواتهم و صلاتهم و إخلاصهم" (٣٩)
- "إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقى" (٤٠)
- "من أحب أن يبسط له في رزقه، و ينسأ له في أثره، فليصل رحمه" (٤١)

و حول العدل:

- "إنه لا يفلح الظالمون" (الأنعام : ٢١)
- "و سكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم و تبين لكم كيف فعلنا بهم و ضربنا لكم الأمثال" (إبراهيم :

(٤٥

و حول الصبر :

- "إنه من يتق و يصبر ، فإن الله لا يضيع أجر
المحسنين" (يوسف : ٩٠)

و حول الرفق:

- "إن الله رفيق ، يحب الرفق، و يعطى
على الرفق ما لا يعطى على العنف و ما لا يعطى
على ما سواه" (٤٢)
- "من يحرم الرفق يحرم الخير" (٤٣)

و حول الحياء :

- "الحياء لا يأتى إلا بخير" (٤٤) "ما كان الحياء فى
شئ إلا زانه، و لا كان الفحش فى شئ إلا
شانه" (٤٥).

و حول الصلة القوية بين الإيمان أو النفاق من جانب، و بين
الصدق و الوفاء و الأمانة و العفو من جانب آخر، يقول رسول
الله صلى الله عليه و سلم:

"أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، و من كانت
فيه خلة منهن، كانت فيه خلة من نفاق ، حتى يدعها
: إذا حدث كذب و إذا عاهد غدر ، و إذا وعد
أخلف، و إذا خاصم فجر" ، غير أن فى حديث
سفيان: "و إن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه
خصلة من النفاق" (٤٦).

و حول صلة الأرحام يقول النبي صلى الله عليه وسلم :
 " من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه ،
 و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليصل رحمه ،
 و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو
 ليصمت " (١٧).

- و عن أبي هريرة أن رجلا قال :
 يا رسول الله : إن لى قرابة أصلهم و يقطعون ،
 و أحسن إليهم و يسيئون إلي ، و أحلم عنهم
 و يجهلون علي فقال : لئن كنت كما قلت ، فكأنما
 تسفهم المل ، و لا يزال معك من الله ظهير عليهم .
 ما دمت على ذلك .

و حول الوالدين : يقول سبحانه :
 " و وصينا الإنسان بوالديه حسنا و إن جاهدك
 لتشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، إلي
 مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون " (سورة لقمان :
 ١٤-١٥).

و حول الرحمة بالأطفال يرد ذلك الأثر العظيم ، فعن أبي هريرة
 رضى الله عنه قال :

" قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن
 علي ، و عنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا ، فقال

الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا،
فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال:
من لا يرحم لا يرحم". (١٨)

- وقال أبو قتادة : خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأمامه بنت أبي العاص على عاتقه فصلى، فإذا ركع وضعها ، و إذا رفع رفعها. (١٩)
و في الرحمة بالحيوان ترد آثار كثيرة منها ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتهما إذ حبستها، و لا هي تركتها تأكل من حشاش الأرض". (٢٠)

ومن خلال هذا التتبع لبعض الفضائل التي تغرسها الأخلاق الإسلامية في المجتمع ، وهي مجرد نماذج محدودة ، نستطيع القول: إن الإسلام يبنى المجتمع على الأخلاق إلى جانب التشريع والعقيدة . و كما أن العقيدة و الشريعة عبادة فكذلك الأخلاق عبادة. و قد قدمت الحضارة الإسلامية صورا رائعة في الحب والإخاء والتكافل و التراحم بين الإنسان و أخيه الإنسان مسلما كان أو غير مسلم - بدرجات متفاوتة بالطبع - إذ للمسلم حقان، و لغير المسلم حق واحد، و للمسلم الرحم ثلاثة حقوق.

و لم تكن الفضائل الخلقية فى المجتمع المسلم لغاية المنفعة أو اللذة ، بل هى عبادة خالصة لله ذات إحسان و استمرار و أصالة و امتداد و إيجابية . و المجتمع الإسلامى - فى حقيقته - مجتمع أخلاق، ورسالته رسالة شاملة تقدم نموذجاً للإنسان الذى يحسن صلته بالله، و يقدر الله حق قدره، و يتعاون مع أخيه الإنسان، و يتعامل مع الكون بود و حب حيوانا كان أو جماداً... إنها كلها تسبح الله، و كلها مظاهر لإبداع الخالق العظيم.

لقد قدمت سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم الأخلاقية مع صحابته و زوجاته و أعدائه و محاربيه أروع نموذج عرفته البشرية - أو يمكن أن تعرفه - للنسيج الأخلاقى المحكم المتعانق الخيوط، كأنما ينطلق فى كل الأخلاق و المعاملات من حقيقة أخلاقية واحدة.

و عبر التاريخ الإسلامى - و حتى اليوم - قدمت المجتمعات الإسلامية على تفاوت فى الدرجات، وعلى مرور بعض فترات الانحراف، وعلى خلل فى أكثر الأحيان فى بعض الشرائع الفوقية... قدمت أفضل ما يمكن تقديمه من سمو أخلاقى فى النطاق البشرى الممكن !! و حتى مع وجود تخلف مادى و علمى فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة فإنها مسازالت الأرقى و الأزكى فى أخلاقها ، سواء فى علاقة الرجل بالمرأة، أو الترابط الأسرى، أو عطف الوالد على ولده، و الولد على أبيه،

و العطف على الأرحام و الجيران و إخوان العقيدة، و الصدق مع الله والشعور بالآخرة... فإذا أضيفت إلى هذه المجتمعات الجوانب التنظيمية و العملية و أسباب القوة المادية و العقلية ، أمكن أن تقدم هذه المجتمعات - كما قدمت من قبل - المجتمع المثالي اللائق بالإنسان في العصر الحديث.

هوامش الموضوع :-

- ١ - محمد عبدالله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ط ١٤٠٥/٦ دار البحوث العلمية ، الكويت ص ١ - د (مقدمة)
- ٢ - المرجع السابق ص ١ - هـ
- ٣ - أبو اليزيد العجمي: الأخلاق بين العقل و النقل ص ٢١ دار الثقافة العربية القاهرة ١٩٨٨
- ٤ - سليمان الخطيب ، الأخلاق ص ٢١ القاهرة ١٤٠٩
- ٥ - الأخلاق بين العقل و النقل (مرجع سابق) ص ٣٣ - ٣٤
- ٦ - الروم : ٣٠
- ٧ - رواه البيهقي و الدارمي
- ٨ - نقلا عن محمد عبدالله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص ٢٦.
- ٩ - الديلمى ، مسند الفردوس، صحيح من طريق أم سلمة، ذكره السيوطي في الجامع الصغير ١٧/١

- ١٠ - دراز : دستور الأخلاق ص ٢٧
- ١١ - المرجع السابق ص ٢٩
- ١٢ - المرجع السابق ص ٣٢-٣٣
- ١٣ - المرجع السابق ص ٣٣-٣٤
- ١٤ - مالك بن نبي: مشغلة الثقافة ص ٧٦ - إصدار ندوة مالك بن نبي بيروت ١٩٧٩م
- ١٥ - المرجع السابق ص ٧٨
- ١٦ - محمد قطب: في النفس و المجتمع ص ٢٢ (ط ٤ : ١٣٩٩) دار الشروق بمصر.
- ١٧ - بتصرف عن: أبو اليزيد العجمي: الأخلاق بين النقل و العقل ص ٩٨
- ١٨ - دراز: دستور الأخلاق ص ٦٣
- ١٩ - صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن
- ٢٠ - الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي ٩٣/٢ ط . التجارية
- ٢١ - دراز / دستور الأخلاق ص ٨٧
- ٢٢ - البخاري: كتاب المظالم - باب ١٠ ، و كتاب الرقاق، باب القصاص . و انظر دراز ٢٥٢
- ٢٣ - رواه ابن ماجه
- ٢٤ - د/ أحمد عبدالرحمن ، الفضائل الخلقية في الإسلام ص ٤٢ دار الوفاء مصر الطبعة الأولى ١٤٠٩
- ٢٥ - محمد سعيد رمضان البوطي: باطن الإنم ص ٢٠ طبعة ٢ مكتبة الفارابي دمشق
- ٢٦ - د/ أحمد عبدالرحمن : المرجع السابق ص ٥٤

- ٢٧ - نقلا عن : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ٣٠٨/٥
جمع الشيخ منصور ناصف : مطبعة الحلبي مصر.
- ٢٨ - مقدار بالجن : التربية الأخلاقية الإسلامية ص ١٥٤ ط : ١
مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٧
- ٢٩ - المرجع السابق (بتصرف) ١٥٥
- ٣٠ - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص ٤٥ طبع دار الفكر ١٩٧٤
بيروت.
- ٣١ - المرجع السابق ٤٩
- ٣٢ - رواء الترمذي
- ٣٣ - مارسيل بوازار : إنساقية الإسلام ص ١٨-١٩ دار الآداب
بيروت ط ١ (١٩٨٠)
- ٣٤ - المرجع السابق : ص ٦٥
- ٣٥ - المرجع السابق ٦٦-٦٧
- ٣٦ - مقمة ابن خلدون ص ٢٤٠ طبعة مصر ١٩٢٠م
- ٣٧ - محمد ربيع جوهري : أخلاقنا ص ٢٨ (بتصرف) مكتبة المسلم
العصرية - مصر
- ٣٨ - رواء البخاري
- ٣٩ - أخرجه مسلم
- ٤٠ - كنز العمال ١٦٩/٢
- ٤١ - أخرجه مسلم في كتاب البر و الصلة
- ٤٢ - رواء مسلم
- ٤٣ - رواء مسلم
- ٤٤ - رواء مسلم

٤٥ - رواء البخاري في الأدب المفرد

٤٦ - رواء مسلم

٤٧ - رواء البخاري

٤٨ - رواء البخاري

٤٩ - رواء البخاري

٥٠ - رواء مسلم

وأخيرا

الحركات الإسلامية المعاصرة و ضرورة العمل الحضاري

من حقنا أن نشير إلى أن كل الحركات التي حاولت تجاهل الإسلام أو التنكر له أو خفض رايته وإعلاء رايات أخرى وطنية أو قومية أو حزبية كانت حركات مشبوهة تنتمي إلى خارج الأمة ، و لم تثبتق من داخله...

فالتراب الإسلامي و البيئة الإسلامية من طنجة إلى جاكارتا تتنفس الإسلام و تعيشه حياة اجتماعية وروحية و فكرية حتى و لو انحرفت عن تعاليمه في التطبيق في جانب من الجوانب ، أو وقع الانحراف في شريحة من الشرائح... فوقيه كانت هذه الشريحة أو تحتية!!

و خلال الأربعة عشر قرنا المنصرمة من عصر الإسلام في التاريخ كان الإسلام - العقيدة و الأخلاق والحضارة - قادرا دائما على مواجهة التحديات و الواقع ، و على إثبات المصلحين الذين يتعهدون الأرض و الإنسان بالدواء و الإفاقة حتى يتمكن من الانتصار على عوامل الهزيمة الطارئة ، و الإقلاع من جديد

بمفاهيم أصيلة جديدة تحيي الثوابت و تزيل عنها تراكمات التاريخ ، و تهضم الجديد الذي يفرضه تطور الزمان ، و تطور العقل في الزمان!!

و على العكس من حركة التاريخ الأوربي كان جميع المصلحين المخلصين في تاريخ الإسلام من زعماء الإسلام و دعائه و مفكره - بل و عاشقيه - و لم يقع قط أن وجد مجدد مسلم ملتزم أن الإسلام يكبل حركته، أو يدفعه إلى الاستسلام للعوامل الطارئة أو للجحود....

- و لم لا؟

- أليس الإسلام حضارة خاتمة تملك الصلاحية الدائمة لمواجهة كل تطور في العقل و الزمان.

- إنه لم يكن يوما حبيس مؤسسة منحرفة أو حبيس فكرة مظلمة تبغضه في الدنيا و في وسائل بقائه من زواج أو تجارة أو زراعة أو صباغة أو علم أو عمل نافع تتوافر له الصلاحية و الصلاح ..

- فلم لا ينطلق المجدد المسلم من دينه إذن ؟ !

- و لماذا لا تعتدل المعادلة في وعيه فيكسب الدنيا و الآخرة معا؟ !

- و لماذا ينشق على دين هذه طبيعته ؟ !

- و هل هناك داع ليكون المسلم وطنيا غيورا على وطنه و على
بنى وطنه أن يتكرر للإسلام و يعلى راية الوطنية على رايته ؟
- و لماذا لا يكسب الاثنين معا و يفوز بالدنيا و الآخرة و يجعل
من جهده لإصلاح وطنه جهدا فى الوقت نفسه لإعلاء راية
دينه ؟ !

- أليس وطنه بعض الأرض التى تخفق راية الإسلام فوقها ؟
- أليست حماية هذه الأرض حماية لبعض أرض الإسلام ؟ !
- و لماذا يجعل القومي قومه ندا للإسلام ؟! أليسوا بعض أقوام
المسلمين ؟ فلماذا يعارض الجزء الكل ؟ و هل فى الإسلام ما
يبغض فى الأقوام، و هو الدين الذى يأمر بحماية الأرحام
و رعايتهم و يجعل صلتهم من أفضل القربات إلى الله ؟ !
- و لماذا لا يكون ولاؤنا لأقوامنا بتربيتهم و بإيقافهم عند حدود
العدل و بالأخذ على أيديهم حتى يسيروا مستقيمين مبصرين فوق
القضبان الصحيحة ؟

- و لماذا يكون التعصب لقومنا أعمى فى الحق و فى الباطل
على سواء ؟ ! و لماذا لا نجعل الوقوف مع قومنا و الأخذ
بأيديهم أمرا من أمور الإسلام، و جزءا من مجموع الأجزاء
الواجبة ، و ثغرة من الثغور التى نجاهد فيها دون أن نفتعل بينها
و بين الإسلام عدااء لا أصل له.. و لماذا لا نفوز بالإسلام

و الرحم معاً، و نمزج بين أرحامنا و إسلامنا و بين بقية الثغور الإسلامية ؟ !

- إن الضمير المسلم و الوعي الإسلامى كانا منسجمين تماماً مع الحقيقة الإسلامية و مفردات الولاء الأخرى. و لم يقع قط - إلا فى مراحل الهوان و التخلف - و من قبيل الشذوذ و الانحراف - أن وجد الإنسان المسلم نفسه مسوقاً إلى خيارات فاصلة بين وطنه و قومه و دينه... و الخصيصة الكبرى للقيم الإسلامية هى أن منظومتها تجمع بين مفردات كثير من العناصر التى تبدو لدى بعض الأيديولوجيات متعارضة ، بينما هى فى منظومة القيم الإسلامية ذات ترتيب محدد ، و نسب محددة ، و هى - فى محصلتها الأخيرة - متفاعلة و متكاملة و منسجمة !!

• • •

و من هنا كان إفرازاً غير طبيعى ، و كان نبأ لا يتساق مع التراب الإسلامى ، بل كان استجلاباً لثمار ليس لها جذور ، و لا تسمح التربة بإنباتها... كان كل ذلك هو التعبير الصحيح عن ذلك النقل الحرفى للدعوات الوطنية و القومية التى ظهرت ، بل و سيطرت فكراً و عملياً، لبعض الوقت ، فى عالمنا العربى و الإسلامى.

و من المؤسف أن تأتى هذه الدعوات بكل مفاهيمها اللاإسلامية التى تنسجم مع التربة التى أفرزتها و التى قامت بتصديرها ، بل

و بالوقوف وراء دعائها بالتشجيع و الإبراز و شتى وسائل التمكين والدعاية.. تأتي و تنتشر و تحكم دولا ، و كأن هؤلاء المسلمين بالجنس و الوراثة الذين نقلوا إلينا هذه المذاهب قد فرغوا تماما من المعرفة بالإسلام ، بل قدم لهم إسلام مشوه نسج من بعض عصور التخلف، و من بعض سلوكيات الأفراد الشاذين حكاما كانوا أو محكومين ...

و لم يحاول قط هؤلاء الذين تعاقد الاستعمار و كنيسته معهم لغرس هذه الأفكار في التربة الإسلامية أن يعرفوا الإسلام من أصوله ، و لا من خلال منظور محايد يضع القيم في إطارها البشري و في مسيرتها العامة و في تعبيراتها الصحيحة و صورها السائدة.

و ما ينطبق على الدعوات العنصرية الوطنية و القومية التي تم مذهبها و تكييفها أيديولوجيا لتصبح بديلا للإسلام... ما ينطبق على هذه الدعوات ينطبق كذلك على المذاهبات المادية و الفردية الأخرى التي انتشرت على الساحة العربية و الإسلامية خلال القرن الرابع عشر المنصرم من الهجرة (العشرين للميلاد) و لم تسقط في عالمنا العربي إلا مع سقوطها في العالم كله، و إن كان من الحق أن نسجل - تاريخيا - أن العالم الإسلامي بصفة إجمالية صمد في وجه هذه المذاهبات كما لم يصمد العالم النصراني و العالم الوثني، بل كان صمود المسلمين في أي بلد

شيوعي أو اشتراكي أو قومي أقوى من صمود الطوائف الأخرى
التي تعيش في البلد نفسه ، و ذلك على الرغم من الضغوط
الكثيفة التي كانت توجه إليهم بصفة خاصة !!

• • •

كانت الحركات الإسلامية - إذن - هي التعبير الصحيح عن
التربية الإسلامية ، و عن الفطرة، و عن التاريخ ، و وعائمه
الحضاري ، و لم تكن هذه الحركات بالنسبة للعالم الإسلامي
"إحدى الحركات الفكرية و السياسية الهامة و المؤثرة" كما أنها لم تكن
"أهم التوجهات المؤثرة في المجتمع العربي والإسلامي" إلا من باب
التجوز في التعبير .. فالمقارنة بين الصحيح و الزيف و الطبيعي
و الصناعي مقارنة نظرية و فكرية ، لكن طريقيهما مختلفان
أهمية، ومختلفان تأثيراً، ومختلفان انتماء و ولاء ونتائج!!

و لئن درج بعض المنظرين إلى طرح الإقلاع الإسلامي
الحضاري هذا الطرح النظري الذي يتعامل مع المشروع
الحضاري الإسلامي بمنظور أو "كاميرا" [مصغرة] و مع
المشروعات الأخرى اللامنتمية بمنظور أو "كاميرا" [مكبّرة] فإننا
- من رؤيتنا الحضارية الإسلامية - نتحفظ على هؤلاء
المنظرين ، و نؤمن بأن الإقلاع الحضاري الإسلامي هو
الطريق الذي لا طريق سواه ، و أن الطرق الأخرى إنما تساق
لتبديد الطاقة و صرف الأبصار عن الطريق الصحيح، و تأخير

الإقلاع أطول فترة ممكنة ... فهي - إذن - ليست طرقاً أخرى،
و إنما هي محاولات تضليل عن الطريق الصحيح الذى يجمع
كل أبعاد المعادلة الحضارية، و يقدم البديل الحضاري ، لا
للغرب و لا للمسلمين وحدهم، و إنما للبشرية التائهة
و المخدوعة كلها..

• • •

و كان أول خطأ وقعت فيه الشرائح التى تصدرت الأمة فكراً
و تنظيمياً من خلال عدد من التنظيمات و الاجتهادات أنها نسيت
حقيقتها ، و لم تفهم طبيعة دورها، و قد نجح خصومها
المزودون بـ"تكتيك" الغرب و مخططاته فى أن يجعلوها تبدو فى
موقع رد الفعل أو الحل فى الأزمات الكبيرة... و دائماً يكون لرد
الفعل الحاد نسبة الخطأ التى يقع فيها الفعل المضاد ... و كما لا
يجوز للمعلم و لا للطبيب ، و لا للوالد المربي أن يكون رد فعله
مساوياً للفعل الذى يقع فيه التلميذ أو المريض أو الابن، فكذا
كان من الواجب على العاملين فى الحركات الإسلامية أن لا
يستنزوا إلى معارك آنية، و إلى خصومات مرحلية، و أن يفقهوا
- من خلال وعى و تربية كافيين - أن بناء المشروع الحضاري
الإسلامي ، والإقلاع بأمة من وهدة حضارية تردت فيها بعوامل
من داخلها و استغلال من خصومها ، أمران ليسا من السهولة
بمكان ، و لا يصلح معهما الاستقلال الجزئى السياسى أو

الاقتصادي دون توطئة وتمهيد، و دون رعاية كافية للبذور ،
و تقليل بقدر الطاقة من الأعشاب الضارة التي يغرسها الخصوم
الأقوياء المزودون بعلوم التخطيط و الأنثروبولوجيا و الحضارة
و السياسة و الإعلام !!

إن معرفة الماهية و الرسالة و الأهداف معرفة ضرورية
و أساسية لمن يريدون بناء مشروع حضاري ، و حمل رسالة
عظمية تطمح إلى إنقاذ الأمة المؤمنة ، لتتقذ بها البشرية النائية
عن حقيقتها و رسالتها الحققة !!

و لم يكن الأمر صعبا على الحركات الإسلامية أن تتعلم ، و أن
تفقه، فرصيدها النبوي و الراشدي و الحضاري الممتد،
و النماذج الحضارية البشرية الأخرى، كلها يمكن أن توضع بين
أيديها، و ذلك شريطة أن يكون كل مسلم يريد الانتماء لهذا
المشروع مستعدا أن يتعلم، و أن يتلقى، و أن يحاور بالحسنى،
و أن ينقى قلبه و عقله من الاستعلاء الآثم ، و الظنون القائلة ،
و آثار العنصريات و الطبقيات و الأثرة !!

و في الفقه الحضاري القرآني و النبوي زاد وفير لمن أراد أن
يذكر و أن ينسجم مع سنن الله في التغيير و بناء النفوس
و العقول و الحضارات !!

لكن بعض المنتسبين إلى هذه الحركات ظنوا لبعدهم عن الفقه
الحضاري ، و عن الإدراك الصحيح لطبيعة رسالتهم، أن

الإقلاع الحضاري يشبه إقلاع الطائرة، و أن الإنسان يشبه "الكمبيوتر" و هو وهم كبير أدى إلى كثير من الانتكاسات ، و سالت بسببه كثير من الدماء، و أهدرت كثير من الطاقات!!
فالحضارة ليست طائرة و لا مشروعاً إدارياً أو صناعياً، بل هي تمهيد للتربة ، و تنقية لها، و غرس للبذور الملائمة و رعاية لها و تعهد بالغذاء و الماء ، و انتظار صبور للنتائج و الثمار الصالحة!!

و الإنسان كائن عاقل حر مريد مؤثر ، و ليس مجرد حاسوب تملؤه بالمعلومات ليندفع بها في أسرع وقت كلما طلبت منه ذلك!!

وما زالت الحركات الإسلامية - للأسف - لا تريد أن تقف هذه الوقفة المتأنية مع نفسها، و مع طبيعة البناء الحضاري، و الإمكانيات ، و التحديات المحيطة، و الوسائل العملية و الميسورة!!

و قد نتج عن هذا الخطأ أن العمل الإسلامي يغلب عليه الفردية و العفوية و العاطفية ، و أن هذه الحركات الإسلامية لم تحقق نجاحاً ملحوظاً في بناء مؤسسات ثابتة مرتبطة بعموم المجتمع.. و حتى المؤسسات التي نجحت في بنائها كانت تمتد بها ، و كأنها لا تدرك حجم الأعداء المتربصين ، كما أنها - كذلك - استخدمت وسائل قفز أكبر من حجمها و إمكانياتها، فسقطت في

حفر كثيرة، بل إن بعضها (لبلأهته) كان يضمخ نفسه أمام عدوه الأكبر منه بمراحل ، و كأنه يستعدى هذا العدو، و يحذره منه ، و يناديه بلسان الحال (بل و المقال) ليقضى عليه؛ فإنه خطر سوف يقترب منه و يقضى على مصالحه !!

• • •

و مع غياب الرؤية الحضارية ، و ما تقتضيها من أناة و صبر و تخطيط و تعميق للجذور فى إطار التربية و تعميق الصلة بالله ، واستحداث البدائل التى تفرض نفسها أدبيا وفنيا وعلميا ...

مع هذا الغياب للرؤية الحضارية حصرت كثير من الحركات نفسها فى بعد واحد من أبعاد التغيير و هو البعد السياسى ، بينما حصرت قليل من الحركات نفسها فى بعد واحد آخر و هو العمل الفردي، عن طريق ملاحقة الفرد فى سلوكياته الجزئية و الفرعية و الشكلية و الروحية دون أن تتسع الرؤية لقيمتى العلم و العمل اللذين هما من أهم مقومات الانبعاث الحضاري !! و قد عجزت كثير من الحركات عن إدراك الفروق بين مؤهلات الآخرة و الدنيا، فبينما تنتظم مؤهلات الآخرة المؤهلات الدنيوية الصالحة ، فإن المؤهلات الدنيوية قد لا تكون موصولة بمؤهلات الآخرة، بل قد يفوز فيها الكافر إذا استكمل شروطها، على أساس

أن هذه المؤهلات الدنيوية امتحان مشترك بين كل الناس .. أما الآخرة فهي للمتقين الصالحين وحدهم.

ففى العلم الدنيوي المعاش، و فى العمل الدنيوي القائم على هذا العلم يتساوى كل الناس ، و بالتالى قد ينجح الياباني الوثني أو البوذي أو اللاديني و يفشل المسلم الذى يلتزم بالشعائر الإسلامية التزاماً ظاهراً و رسمياً!!..!!

لقد أتقن الياباني مؤهلات الدنيا، بينما خدع المسلم نفسه فظن أن التزامه ببعض شعائر الإسلام يغنيه عن إتقان هذه المؤهلات، فسقط فى حفرة التبعية و الاستهلاك !!

و قد كان من أوجب واجبات الحركات الإسلامية - بلا استثناء - وهى تسعى لبعث الأمة و الإقلاع الحضاري أن تجمع فى عناق و تآزر و فاعلية متبادلة بين مؤهلات الدنيا و عبادات الإسلام و قواعده المعاملاتية التى لا تخرج فى نهاية مقاصدها الشرعية عن أن تكون وقوداً و توجيهاً لمؤهلات الدنيا فى مسارها الصحيح، حتى تحقق للإنسان المسلم - و به - الحضارة الصحيحة المتميزة و الخصوصية !!

* * *

و كان من تداعيات الرؤية المحدودة - غير الحضارية - لكثير من الحركات الإسلامية أنها فشلت فى التعامل مع النظم السياسية الحاكمة !!

وقد نجحت كثير من النظم الحاكمة - بتوجيه من القوى المضادة الخارجية التي ترفض المشروع الحضاري الإسلامي كله في أن تستدرج هذه الحركات الإسلامية إلى معارك ليس في طوقها الدخول فيها !!.

و لأن الحركات الإسلامية لم تبذل جهدا كافيا في مجال إصلاح السياسة الشرعية و تبصير الراعى ومساعدية. بل اتخذت من الطبقة الحاكمة موقفا مبدئيا قوامه الرفض و الإدانة في غالب الأحيان، فقد ساءت العلاقة بين الطرفين، و نجح الأعداء من صليبيين و يهود و علمانيين في الوقيعة الدائمة بين الحكام و الحركات الإسلامية و تخويف النظم الحاكمة من هذه الحركات، و إشاعة مفاهيم التطرف والعنف و الرفض حولها .. كما نجح هؤلاء في إخفاء أهدافهم و جرائمهم، و لصق كثير منها بهذه الحركات الإسلامية !!

إننا نعى حجم المكائد الخارجية التي تدبر ضد النهضة ذات الطابع الإسلامي بعامة لأنها المشروع الحضاري الوحيد الصحيح، و لهذا فهي تحظى بأكبر قدر من مكائد الأعداء و تربصاتهم ، بل ومساوماتهم السياسية، كما أننا نعى أن كثيرا من الحكام - ولا سيما في عصر الهيمنة الاشتراكية - يتلقون تقارير الأعداء و نصائحهم و تدخلاتهم في الشؤون الداخلية بالقبول و الرضا و الخضوع الذليل، مع أن أبجديات العقل

الموضوعي تقتضى الشك فى نصائحهم و تقاريرهم ، بل إن الكرامة تقتضى رفض هذه التقارير .. و أما الإسلام فيوجب هذا الرفض، لأن القبول بتوجيهاتهم نوع من الولاء و التبعية و الذل و الخيانة للإسلام و للأمة الإسلامية... إننا نعى - بوضوح - كل هذا ؛ لكن هذا لا يعفى الحركات الإسلامية من مسئوليتها فى التقصير فى هذا الجانب ، فهى لم تبذل جهدا كافيا فى تبصير الحكام و الاحتكاك بهم و برجالهم احتكاكا مباشرا، بل تركتهم يواجهون تقارير الأعداء وحدهم دون مساعدة على المقاومة ، بل إن بعض الحركات الإسلامية بالغت فى هذا الأمر، فأدانت كل من يتصل بالحكام ، حتى من العلماء الأعلام النقات ، و جعلت من علامات الإخلاص البعد عن الحكام و المخالفة لهم ، حتى و لو كانوا فى موقف ينسجم مع الحقائق الإسلامية، فكان مخالفة الحكام أصبح هدفا فى حد ذاته!! و لو أن الحركات الإسلامية اختلفت وسائلها و أساليبها دون أن يعقب هذا الاختلاف صراع بين بعضها البعض، و إدانة لبعضها البعض، و فتن كقطع الليل تقوم على الغيبة و النميمة ، بل و محاولة الإيذاء و التشويه و التجريح و الرمي بأسوأ التهم... لو أنها لم تسقط إلى هذا المنحدر - فى بعض فصائلها بالطبع - لأمكن تحويل هذا الاختلاف إلى مستوى إيجابى تتعاون فيه

الإيقاعات المختلفة ، والوسائل المتباينة ، لكي تحقق في النهاية أهدافا مشتركة !!

لكن ذلك لم يقع ، بل الذى وقع هو العكس، فبددت كثير من الطاقات، ومشى العمل الإسلامى يهدم بعضه بعضه....
و لولا ثقة كثير من العاملين للإسلام فيما عند الله ، و فى أنهم على الحق، و فى أن ضريبة الجنة غالية، و فى أن البشر لن يضرروا بشرا - و لو اجتمعوا عليه - إلا بإذن الله ، و لن ينفعوه إلا بإذن الله... لولا هذا ليش كثير من العاملين للإسلام من العمل الجماعى و الفكرى و الحضارى - بتأثير إخوانهم أولا - و لركنوا إلى ظل شجرة و بعض الغنم يعبدون الله و هم مستريحو النفس و الضمير ؛ فقد أصبح كل ذى رأى معجبا برأيه ، و ساد الجهال و أصبحوا فى موقع الفتوى ففى كل مدرسة و قرية و جماعة مفتنون ... يرفضون من خالفهم و يدينونه و يحاربونه ...

• • •

لكن ذلك لا يعنى أن السلبيات أكثر من الإيجابيات ، بل الإيجابيات التى قامت بها الحركات الإسلامية أكثر من سلبياتها... فقد أعطت الوعى الإسلامى الكثير، و قد وقفت فى وجه تيارات الشيوعية و الاشتراكية والوجودية والتغريب و هى فى قمة قوتها ، حين كانت - و ما زالت - بعض القوى الحاكمة

تقف وراء هذه التيارات و تفتح كل المجالات لأصحابها من مناصب و وسائل إعلام و أموال، بينما تمنع عن المسلمين كل الروافد المؤثرة و تضع أمامهم العراقيل . و سواء تلقعت التيارات المعادية بالرداء الوطني أو القومي أو الحداثي ، فإن الحركة الإسلامية كانت - و ما زالت - تعرف ما وراءها و من وراءها ... و كما انتصرت الحركة الإسلامية على الشيوعية و هزمتها هزيمة نكراء فى العالم الإسلامي و غيره ، فإنها سوف تعيد ترتيب بيتها الإسلامي ، و تقف الوقفة الإسلامية و الحضارية المنشودة ، لتتنصر على خطر العلمانية اللادينية الزاحف .. إن شاء الله .

المهم أن تبدأ فى تغيير النفس بالعقل و القلب حتى يتحقق وعد الله الذى لن يتخلف: "هو الذى أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا" (الفتح : ٢٨)
صدق الله العظيم

فهرس المحتويات

٥	 مقدمة
	الوحي قبل العقل (درء التعارض
١١	 بين الثابت و المتحول)
	العمل لتطبيق الشريعة فرض عين على
٣٣	 جيل الصحوة
٥٩	 دور الاجتهاد الفقهي فى التاصيل الإسلامى للصحوة
٧٥	 الحياة الروحية فى إطارها الإسلامى
	إحياء الأخلاق الإسلامية من واجبات
٩٧	 الصحوة الإسلامية
	الحركات الإسلامية المعاصرة و ضرورة
١٤١	 العمل الحضارى

رقم الإيداع: ٩٦٠١/٩٩٣م

I . S . B . N : 977 - 255 - 074 - 1

مطارع الوفاء - المنصورة

هذا الكتاب

- * يتحدث المنافقون - العلمانيون - كثيرا في عصرنا عن الثابت والمتحول ، ويريدون أن يثبتوا من خلال كتاباتهم ومحاضراتهم وندواتهم أنه لا ثابت في هذه الحياة ، فكل شيء متغير .
- فلا عقيدة ثابتة .. ولا شريعة ثابتة .. ولا أخلاق ثابتة ، بمعنى أنه لا وحي ، ولا روح ، ولا ضمير ، ولا لغة قرآنية ثابتة ، وأن كل المفاهيم نسبية !!
- * والحياة البشرية بلا ثوابت - تحدد معالم الطريق وتلتف حولها المتحولات والمتغيرات - غابة يعيش فيها وحوش ، والعقل وحده لا يصلح للتشريع ولا لقيادة الحياة ، والواقع خبير شاهد ، وما تخطب العالم الغربي بخافي عنا وإن حاول بعض المنافقين أن يقولوا عكس ذلك .
- * والمؤلف - وفقه الله - قد جلى هذه القضية بمزيد من التوضيح ، فوضع الوحي في مكانه والعقل في مكانه ، وقدم لشباب الصحوة الإسلامية مفاهيم منضبطة عن عدد من الثوابت الضرورية التي تحتاج إلى تعميق جذورها في الأعماق وعدم المساومة عليها
- * ودار الصحوة يسرها أن تقدم هذا الكتاب لشباب الإسلامية وقرائها الكرام ، والله من وراء القصد .

دار الصحوة للنشر والتوزيع

الإدارة: ٧ من السراي - أول الخليل ت. فاك
الفرع: حدائق حلوان - بحوار عمارات المهندسين ت

